صباغ نور الهدى

هذه الطريق أجمل

تصميم الغلاف : فاطمة رأفت

اسم الكتاب: هذه الطريق أجمل
التأليف: صباغ نور الهدى
إخراج فني: أميرة محمود
غلاف: فاطمة رأفت
الناشر: دار تراث للنشر الإلكتروني
الموقع الإلكتروني: https://torathbookstore.blogspot.com/

دار تُراث للنشر الإلكتروني

Facebook دار تراث للنشر الإلكتروني
Email engamiramahmoudfathy@gmail.com
Tel 002 01099607320 & 002 0115518301
Whats 002 01099607320 & 002 0115518301

المدير العام/ م. أميرة محمود فتحي
رئيس مجلس الإدارة/ عبد الرحمن محمد
جميع الحقوق محفوظة ©
للكاتب ولدار تراث للنشر الإلكتروني.

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة دون الرجوع
للكاتب، وغير مصرح بتداوله بدون إذن خطي.

رواية

هذه الطريق أجمل

صبـــــــــاغ نور الهدى

الإهداء:

إلى معلمي وصاحب الخريف الجديد... زارع ربيع الأمل في قلبي... ومُحيي شغفي الهائم...

إلى رفيقتي في حبِّ القلم... صديقتي وأختي الكبرى: "نظرة" ...

إلى أولى الداعمات القارئات لي... البعيدات عني والقريبات إلى قلبي: "بشرى"، "حفصة"، "ياسمينة"، "فراح" وعداهنَّ الكثير ...

المقدمة:

لعلك أيها القارئ تظنَّ أن الروايات الدينية مملة، وأنها بمثابة المعجزات التي سمعت عنها ولم تلمسها عيناك يومًا، ولكن تذكَّر أن تلك المعجزات تبعث أثرها في نفوسنا حتى وإن لم نرها ... وتجعلنا نعيد التحليل والتفكير لنصل إلى سدٍّ ليس بعده طريق، ولعل الغرض من ذلك هو اليقين بقدرة الله وقوته الكامنة ... ولكن الروايات الدينية شيءٌ آخر، فلعلك تجد في داخلها جزءاَ مما فقدت داخل روحك الضائعة بين غياهب الذنوب والمعاصي، وإن كنت أول المذنبين...

ولا أُخفيك القول أنني أول المتأثرين منها، إذ أنني قمت لصلاة الفجر لأول مرة بدون منبِّه حينما كنت أفكر في جزئيةٍ أذكر فيها ذلك، فإذا بي أجد نفسي أزامن الفجر تمامًا كما حدث في الرواية التي ستقرأ أحداثها لتفهم ما أعنيه، لعل ذلك كله كان معجزةً أخرى ... معجزةً جميلة ... ولربما شاء الله أن يحمل إلى مهجتك الهائمة شيئًا من هذه المعجزة، أو على الأقل فلذة ذكرى أقتات منها حسناتِ جارية لي ولك بإذن الله.

عزيزي القارئ ... أدعو الله لي ولك بالهداية، وأرجو أن ينفكَّ الله من فضلها كما نفعني، كما أتمنى لك قراءة ممتعة تعثر فيها على جزء ضائع منك فتشكرني في قرارِتك وتدعو لي بدعوةٍ تجيرني من غلَّة كربٍ أو تدلف إليّ براحةٍ ورضا ضائع ...

***

_خير يا أمي، ما الموضوع الذي تريدين أن تُحدِّثِينَا عنه؟

_اسمعوني يا أبنائي ... إنني أريد لكم أن تعيشوا في بيتٍ متكامل كأي عائلة أخرى، وبُعْد والدكم قد بات يُنَغِّصُ عليه وعلينا هناءة العيش، لذا قررنا البارحة أن ننتقل معه للعيش حيث يعمل ... إلى بيتنا في وهران ...؟

_هذا مستحيل! Qu’est-ce que tu dis

_"بيري" ... أعلم أنكِ وُلِدتِ وترعرعتِ في "تولوز"، ولكن فكري في والدكِ البعيد. لا تقلقي لن نبيع بيتنا هنا، ويمكنكِ وإخوتكِ السفر كلما اشتقتم له ولأصدقائكم هنا ...

تجهمت وجوه المستمعين، كيف لعائلة شَبَّت وأَلِفَتْ مسقط رأسها أن تُغَادِرَ بهذه الطريقة ومن غير تمهيدات؟ قد تكون الجزائر بلدهم الثاني، ولكنهم لا يعرفون عنه شيئًا ... هم لم يُسَافِرُوا يومًا إليه، ولا تربطهم به سوى جنسيتهم الموقعة على بطاقاتهم وهوياتهم الشخصية لا غير.

نهض "آدم" من مقعده في غضب وقد شَدَّ تعابيره، وقال:

لن أرحل أيضا إلى حيث لا أعرف لنفسي مكانا_ma mére …

نظر إليه شقيقه "دانيال" وقال باستهزاء:

_moi aussi …

استشاطت الأم غضبًا وقالت:

_يكفي ... لا تكونوا أنانيين في قراراتكم. رَبّيتُكم أن مصالح العائلة أولى من مصالحكم الشخصية، وأنا ووالدكم نريد أن نحافظ على شمل العائلة، وهذا لا يحدث إلا بانتقالنا للعيش معه ... لذلك لا تكونوا أنانيين.

***

انبلج الصّبحُ وبدأت الشمس تسترق النظر من وراء المباني الحمراء في مدينة "تولوز". جلست "بيري" تراقب ذلك المنظر البهي الذي لن تراهُ لفترةٍ طويلةٍ. لعلها لم تنم طوال الليل، ففِكرةُ الانتقال تؤرقها وتنهك آمالها التي رسمتها للمستقبل، فقبل أيام حازت على شهادة الباكالوريا، وبدأت تستعد لتبدأ مسارها الجامعي في جامعة (بول سباتييه) القريبة من منزلها، فذاك هو الهدف الذي جاهدت لأجله، والعهدُ الذي تبادلته مع صديقيها "فيليكس" و"إميلي" لكي لا يفترقوا عن بعضهم، وتدوم صداقتهم دائماً، ولكن الآن ... كل شيء اختلف.

استلم خبر رحيلها كل الحيوية والنشاط التي عرف بها صديقاها، ولم يكونا أقل تأثراً منها هي الأخرى. وحاولوا بشتى الطرق إقناعها ووالدتها بالبقاء، ولكن ما باليد حيلة. فهي لن ترحل محض إرادتها، ووالداها لن يتراجعا عن القرار، وسعادة تظل أحق من سعادتها.

ظلت ذاكرتها تعيد لها صور صديقيها وذكرياتهم معا، أيام الثانوية، ومغامراتهم العديدة، أيام أفلام السينما والاحتفالات التي جمعتهم، نزهاتهم ورحلاتهم إلى مختلف المناطق من فرنسا ... أوقات لن تعربد عن وجدانها الجريح. انسابت دمعة حارة على وجنتها، لم تقوَ على

مسحها بل تركتها تأخذ مجراها من وجهها. إلى أن لمحت "فيليكس" و"إميلي" يسرعان نحو بيتها. لا شك أنهما يريدان توديعها قبل أن تسافر، رغم أنها ودعتهما البارحة، إلا أن الشوق لا يسمح للمهجة بأن ترتاح، بل يشعل فتائلها التي لا تكاد تنطفئ.

ركبت موضعها مسرعة نحوهما، والدموع قد غطت مقلتيها، وأعمت طريقها نحوهما. ولكن هذه المرة كانا أشد قوة منها، حاولا أن لا يبديا ضعفا أمامها لكي لا يزيدا من ألمها، وإن كان يحتويهما نفس الألم. حاولا التخفيف عنها بمزاحهما وحكاياتهما المسلية، ويلونان بآمالهما طريقها نحو حياتها الجديدة، ستكون سعيدة وستحب بلدها الثاني لا شك، ستعرف أصدقاء جدداً وتمضي معهم مغامرات جديدة، ستسجل هناك أيضاً التخصص الذي أرادت دراسته، والأهم أنها ستسافر إليهما مستقبلاً، ولم لا يسافران هنا أيضاً لزيارتها واكتشاف وهران! أخيراً ... وبعد حديث طويل أقنعاها، ورسما على شدقيها ابتسامة لم تعرف وجهها منذ سمعت بخبر سفرها. لحقا بها إلى المطار حيث ودعاها للمرة الأخيرة، وانطلقت في رحلتها لبلد ثان وعالم جديد ستعيشه.

حَطّت الطائرة أخيراً في مطار (أحْمَد بن بَلّة)، كان السيد "قاسم" يقف هناك ليستقبل زوجته وأولاده بعد طول غياب، لاحظ في أبنائه شيئًا من الفتور الذي حاولوا إخفاءه، لا سيما "بِيري" التي لم تشأ أن تُشعر والدها بالذنب بسبب القرار الذي اتخذه. أما "آدم" و"دانيال" فلم يَخفَ على الناظر إليهما حجم الاستياء الذي استلمهما، ولكن القدر قد فرض حكمه هذه المرة، ولم يكن الحزن ليغير من الواقع شيئًا.

كان الأب قد أجرى تعديلات مسبقة على بيتهم الجديد في مدينة (frond de mer لم تتوقع "بِيري" أن المدينة التي حدّثتها عنها أمها ستكون بتلك الجمال، فبينما يجول والدهم بالسيارة وسط الطريق التي تطل على مينائها الخلاب، حلت عليها بهجة غريبة وسكينة أوقفت هواجسها التي كانت تتضارب في روحها منذ قليل.

_أبي! أوقف السيارة... أريد أن أرى عن كثب هذا الميناء ...

S’il vous plaît !

ضحك والدها وقال:

_ستعيشين هنا يا ابنتي... يمكنكِ رؤية المنظر متى شئتِ.

_أعرف... ولكن لا يمكنني الصبر حتى نضع أمتعتنا.

_حسنًا، لنتأمل جميعًا هذه الصورة.

وضعت "بِيري" يديها على السور المطل على البحر، وأخذت تتأمل زُرقته التي كانت تحاكي السماء، فتكسّر تلك البواخر الملونة تلك الزرقة لتتناسق الألوان فيما بينها مخلفة صورة جميلة تعجز الكلمات عن وصفها. وقد كانت الشمس قد بدأت تتخلى عن مقعدها في السماء التي شابها شيء من الاحمرار.

أخرجت "بِيري" هاتفها وأخذت تلتقط صورًا للمشهد، كانت مهووسة بالتصوير، ومثل هذا المنظر لن يمر دون أن تجعل له ذكرى في هاتفها كما أخذ لنفسه ذكرى جديدة في مخيلتها في أولى لحظاتها بالبلد والمدينة الجديدين.

***

توالت الأيام على "بِيري" في تلكُّؤٍ شديد، فعلى غير عادتها باتت تمضي جلَّ أوقاتنا في البيت، تارةً تتصل بصديقيها عن طريق مكالمات الفيديو فتسترجع معهما ذكرياتهما البالية وتشاركهما بعض الوحدة التي تمرّ بها بعد رحيلها، وتارةً أخرى تخرج فتتمشى على طول طريق الميناء أين يشغل والدها أحدَ مناصب المسؤولين عن إدارة وتنظيم عمليات شحن وتفريغ وتنسيق أعمال السفن والبضائع.

ولحسن حظّها كانت قد تعرَّفت على فتاةٍ جديدةٍ عن طريق (الفيسبوك) من نفس المدرسة التي اختارتها لتخطَّ فيها طريقها في مشوارها الجامعي ومستقبلها الذي حلمت به. لربما كانت متوترةً من أن لا يتم قبولها في "المدرسة العليا للعلوم البيولوجية بوهران"، ولكن لعلَّ الأقدار هذه المرة رأفت بحالها، فشاءت أن لا تزيد همّها ووحدتها كربًا. فاتفقت الفتاتان على موعدٍ لتتعرفا على بعضهما أكثر، على أمل أن تكون تلك بدايةً لانهزام الانعزال الذي فرضه عليها الاغتراب.

اتفقتا على أن تلتقيا في مطعم (الفلين الصغير) الذي كان يذكر "بِيري" بالأجواء الفرنسية والذكريات البائدة. تعرفت في ذلك اللقاء أكثر على "حَنِين" التي كانت تختلف كثيراً عن صديقاتها في (تولوز). فقد بدا عليها أنها من عائلةِ محافظة، إذ لاحظت أنها رفضت أن تجلس في وسط المطعم خشية الاختلاط بالشباب الموجودين، واختارت طاولةً منعزلة، بالإضافة إلى كونها محجبة. واستمرت تكتشف اختلافاتٍ كثيرةً بين عقلية كلٍّ منهما، فتلك تفرض على نفسها أحكامًا استغربتها "بِيري" كثيراً، بل رأت فيها نوعًا من الرجعية والتخلف. أيعقل لفتاةٍ في ربيع شبابها أن تفكر هكذا؟ بل كيف لها أن تنجح وتصل إلى مراتبَ عاليةٍ إن كانت متشددةً لهذه الدرجة؟

لاحظت "بِيري" أن استفهاماتها الداخلية قد قطعت دابر الحديث بينهما، فقررت أن تبدده بأحاديثها عن ذكريات فرنسا، وعن صديقيها "فيليكس" و"إميلي". وبعد أن أنهت حديثها أخذت تسأل صديقتها عن ذكرياتها هي الأخرى وأصدقائها، فأجابت:

_كان لي صديقةٌ مقربةٌ جدًا، أمضينا معًا أوقاتًا لا تُنسى، كنت أعهد لها بجميع أسراري وألوذ إليها في أيامي العصيبة، ولكنها انتقلت قبل فترةٍ إلى ولايةٍ بعيدة، فبات تواصلنا مقتصرًا على الهاتف.

_يا للأسف! أفهم شعورك جيدًا فأنا أعيشه الآن ... ولكن أكانت صديقتك الوحيدة؟ أليس لك صديقةٌ أخرى أو صديقٌ غيرها؟

_كانت أقربهن إلى قلبي، ومن بعدها لم أجد صديقةً وفيةً مثلها، أما عن الشباب فأنا أرفض صداقتهم.

_ترفضين! ولكن لمَ؟

_لأن ذلك محرم شرعًا يا عزيزتي، إذ لا ينبغي للمرأة المسلمة أن تكلم أو تختلط بأيِّ رجلٍ إن لم يكن من محارمها، فهو يعتبر غريبًا عنها ...

التبس وجه "بِيري" ملامح الاستغراب، ما الذي كانت تقصده بالمحارم؟ أهم عائلتها؟ ولمَ قد يُحرّم ذلك شرعًا إن كانت علاقة صداقةٍ لا غير؟ لربما كانت مسلمةً أيضًا ولكنها تفتقر كثيرًا إلى تعاليم دينها، فوالداها كانا شخصين منفتحين لا يهتمان سوى بالمستقبل العملي لأولادهم، أما الدين فكان عبارة عن شهادةٍ وصلاةٍ متقطعةٍ وصومِ شهرٍ واحدٍ في السنة، فذلك هو كل ما تعرفه عن دينها. شعرت لحظتها

بشيءٍ من التقصير، ولكن أن تكون ملتزمةً كـ"حَنِين" فذلك أمرٌ مستحيلٌ في نظرها لا ريب. حياتها في فرنسا كانت مبنيةً على مبدأ الحرية الذي تلقنته في مدرستها وبيتها، فكيف لها الآن وبعد كل تلك السنين السالفة أن تغير نمط تفكيرها؟

***

أخيراً ... وبعد كدٍّ طويل من "هُمَام" في العمل في مصنع صناعة مادة (البلاستيك) هذا الصيف، حصل على المال الكافي لعلاج والدته المريضة. إذ أن مرضها ازداد في الفترة الأخيرة الماضية، فسرطان الغدة الدرقية بات يؤثّر على حيويتها ويضعف مناعتها، كما كَلَّفَهَا خسارة وزنها بشكلٍ مبالغٍ لاحظه كلُّ من يعرفها.

ومع كلّ المسؤوليات والآلام التي أثقلت كاهل شابٍ لا يزال يستقبل هذه الحياة، لم يظهر لأمه شيئًا منها، بل كان دائمَ

التَّبسّم والانشراح أمامها وإن كان قلبه المكلوم يحمل ما لا تطيقه حتى الجبال. ولكن لعلَّه تعوَّد على الملمات منذ طلاق والديه في الصغر، فقد كان والده شخصًا قاسيًا عليه وحتى على أمه، وأذاقهم من تَجَرّعَاتِ الألم ما لا يمكن لطفلٍ بمثل عمره أن يحتمله، من ضربٍ وجورٍ ومعاناة، ثم بعد كل ما سبّبه استغنى عن زوجته وولده الوحيد دون أن يلين له فتيلُ رأفة. ليعيشوا الفاقة والحرمان في فترتهم المقبلة.

ومع كلّ مآسي الحياة التي أوقَدتْ سهامها داخل أمٍّ بائسة استغنى عنها القدر، إلا أنها ظلت تكافح لأجل ولدها. سعت لتلقينه وتعليمه، وتحملت أعمالًا شاقة ومنهكة لامرأة مثلها مقابل مبالغ زهيدة على

أمل أن تسدَّ بها حاجيات ابنها، وتلبي رغباته وتُعوضه عن ثغرة الأب التي ترعرعت فيه منذ الصغر. والآن ... وبعد أن أضحى شابًا متعلمًا ورجلاً يُعتمد عليه، كيف له أن يتخلى عن تلك التي كانت وستظل السبب في كلِّ نجاحاته وتفوقاته؟ لهذا كان مستعدًا ليرعى أمه ما عاش، تمامًا كما رعته وآثرته على نفسها في صغره.

***

أول يوم جامعي لِ"بيري"، أخيراً ستُبدِّد مللَ العطلةِ بأجواءِ التعلمِ، وهذهِ المرةُ لن تكونَ مُقبلةً على دخولِ مدرسيٍ كالعادةِ، بل إنها تستعدُّ من جميعِ النواحي لتستقبلَ أولَ دخولِ جامعيَ. طورٌ جديدٌ... مرحلةٌ جديدةٌ... أصدقاءٌ جُدُدٌ... وبلدٌ آخرُ، كلُّ ذلك يبدو غريباً عليها، ولكنها تعوّدتْ دائمًا على النظرِ بتفاؤلِ للأشياء من حولها، لن تُصدرَ أحكامًا على حياتِها الآنيةِ إلا بعدَ أن تعيشَها بكلِّ تفاصيلِها، وستمنحُ نفسَها فرصةَ الاكتشافِ لعلَّ القادمَ يكونُ جميلاً، لِمَ لا!

اتفقت "بيري" و"حنين" على أن تترافقا معًا في طريقِهما نحوَ المدرسةِ العليا، ولحسنِ الحظِّ كانتا معًا في نفسِ الصفِّ. تزيّنت "بيري" لهذا اليومِ وحاولتْ أن تبدو في أجملِ حلّةٍ، فوفقًا لنظرِها فإنَّ التزينَ يُضفي على يومِها إيجابيةً خاصةً، فقد نشأتْ على هذه الفكرةِ منذ طفولتها، وتلكَ القاعدةُ سمعتها مرارًا من والدتها في العديدِ من المناسباتِ حتى اقتنعتْ بها. فارتدتْ تنورةً ضيقةً ومزركشةً بنقوشِ الورودِ لم يتجاوزْ طولُها منطقةَ الركبةِ، ونسّقتها مع قميصِ أبيضَ قصيرِ الأكمامِ. كما أنها لم تدَّخرْ جهدًا في وضع بعضِ الماكياجِ وتسريحِ شعرِها، تمامًا كما تعوَّدتْ مسبقًا. ولكن ما أدهشَها في بدايةِ يومِها

هو صديقتُها "حنين" التي لم تتزينْ مطلقًا! لم تضعْ الماكياجَ! ولم ترتدِ ثيابًا مزركشةً حتى في يومِها الأولِ! في كلِّ مرةٍ تراها كانت تذهلُها عزيمتها أكثرَ، وتجولُ أسئلةٌ كثيرةٌ داخلَها ولكنها تكتمُها ولا تعرفُ السببَ، لعلَّها تشعرُ ببعضِ الضعفِ مقارنةً بها، فهي بالتأكيدِ ليست بذلكَ القدرِ من العزيمةِ والتشبثِ، هذا ما تبادرَ إليها منذ تعرفتْ عليها.

كانت "بيري" سعيدةً في ذلك اليومِ، كان جليّا لها أن الأساتذةَ يملكونَ كفاءاتٍ عاليةً، وأسلوبُ التعليمِ بدا ممنهجًا، خاصةً أنها أحبّتْ المقاييسَ التي ستتلقنها خلالَ عامِها الأولِ، فهي تميلُ إلى علومِ البيولوجيا وكلِّ ما يتعلقُ بها. ورغمَ أنها في فرنسا كانت ما تزالُ طالبةً في الثانويةِ إلا أن ذلك لم يمنعْها من البحثِ والاكتشافِ في هذا المجالِ، حتى تعلمتْ عنه الكثيرَ، وتجاوزتْ أقرانَها بمعلوماتٍ لم يتشبعوا بها بعدُ. والآنَ وبعدَ أن حظيتْ بفرصةِ دراسةِ التخصصِ في إحدى أكبرِ المدارسِ العليا التي تضمُّ هذا التخصصَ، عقدتْ العزمَ على أن تسعى للتفوقِ، ولا تهملَ تعليمَها مهما حدثَ. ومنذ عودتْها إلى البيتِ

أخذتْ تطربُ أهلَها بأحاديثِها المسليةِ حولَ يومِها. ما بعثَ الارتياحَ في نفسِ والدِها "قاسم" الذي اطمأنَّ أخيراً لرضا ابنتهِ وسعادتها.

***

سرتِ الأيام على "بيري" كأمواجِ البحرِ الخفيفةِ، بدأت تتعودُ على حياتِها الجديدةِ شيئًا فشيئًا، وإن ظلَّت أم ذكرياتِها في "تولوز" أجملَ في نشرِها. غيرَ أن صديقتَها الجديدة "حنين" ومشوارَها الجامعي الذي باشرتْهُ معها خفَّفا عنها الكثيرَ، ووفَّرا عليها شوطًا كبيراً من الاغترابِ والوحدةِ.

الساعةُ الخامسةُ فجراً ... صراصيرُ الليلِ بدأت تسكتُ أنغامَها التي تعالت طولَ الليلِ، والقمرُ قد أخذ شيئًا فشيئًا يستغني عن مقعدِه في الأفقِ. وهاهو آذانُ الفجرِ استرسل في الأرجاءِ، وهذه المرة تسلل إلى مسامعِ "بيري" ليوقظَها من نومتِها على غيرِ العادةِ. أسرعت نحوَ نافذةِ غرفتِها وفتحتْها لتصغي أكثرَ إلى ذلك الصوتِ الجميلِ الذي بعث في نفسِها سكينةً لم تعهدْها من قبلِ. لعلها لم تسمعْ أعذبَ منه في حياتِها، أهيَ حلاوةُ الفجرِ التي حدثتْها عنها "حنين" قبل أيامٍ؟ أم أن المؤذنَ كان عذبَ الصوتِ بارعَ الأداءِ؟ تملكَها انشراحٌ غريبٌ،

وشعرتْ أنها خفيفةُ الروحِ، حتى نزلت دمعةٌ حارةٌ من مقلتِها. تضاربت أفكارُها في ملحمةٍ غريبةٍ بين ارتياحٍ غيرِ مسبوقٍ وعتابٍ استجدَّ في روحِها في الفترةِ الأخيرةِ، وخاصةً الآن. في النهايةِ قررت أن تنهي ذلك الصراعَ القائمَ بوضوءٍ حسنٍ وصلاةٍ تشفي ما ألمَّ بها، وبعد أن انتهت قبعت على سجادتها ورفعت يديها تدعو:

«يا رب... إن كانت الطريقُ إليكَ بتلك العذوبةِ فأعني على سلكِها ...»

كانت تلك المرةَ الأولى التي تصلي فيها صلاةَ الفجرِ، فعائلتُها لم تكن حريصةً على الصلاةِ كما ينبغي لأيِّ عائلةٍ مسلمةٍ، بالأخصِّ صلاةَ الفجرِ. تمنت وقتَها لو أنها توقظُ والديها وإخوتَها ليشاركوها ذلك الإحساسَ الغريبَ، ولكنها لم تتجرأ على إيقاظِهم لأنها تعلم أنهم حتمًا لن يستجيبوا لرغبتِها، ولعلها لم تشأ أن تعكرَ صفوَ الخشوعِ والطمأنينةِ ذاك.

لاحظت "حنين" في ذلك اليوم أن صديقتَها متغيرةٌ، بدت أكثرَ هدوءًا من ذي قبلٍ، وكانت تشرد كثيراً ولم تتابع شيئًا مما شرحته الأستاذةُ، فاغتنمت انشغالَ هذه الأخيرةِ وقالت لصديقتها:

_"بيري" هل أنتِ بخير؟ تبدين متعبةً.

_أنا بخير لا تقلقي.

سكتت الفتاتان قليلا وتابعتا الدرسَ، وفي نهايتِه قررت "بيري" أن تحدثّ صديقتَها عن المؤذنِ الذي سمعته، وعن الأمانِ الذي اختلجَها.

_"حنين" ... أتعلمين، اليوم أيقظني صوتُ آذانِ الفجرِ، كان المؤذنُ صاحبَ صوتٍ جميلٍ رغم أنه يوحي بشابٍّ فتِيَ لا رجلٍ متقدمٍ في السنِّ، حينها شعرت بانشراحٍ غريبٍ تملكَني وأزاح عني ثقلاً كبيراً، ولم أفهمْ حتى الآنَ ما سببَ ذلك الإحساسِ؟

_أخبرتني قبلاً أنكِ لا تقوين الاستيقاظَ لصلاةِ الفجرِ، وأنا أظن، بل واثقةٌ من أن الله أراد لكِ أن لا تنامي عنها لما فيها من أجرٍ وإجابةِ دعواتِ. لربما تكون بدايةَ استقامتكِ يا غاليتي فلا تحرمي نفسك من لذةِ الشعورِ.

_بدايةَ استقامتِي! أظن أن هذا صعبٌ عليّ يا "حنين" أنا لست مثلكِ ولن أكونَ.

_لا يا عزيزتي لا تظلمي نفسك، فقط جاهدي نفسكِ لتؤديَ صلاةَ الفجرِ في وقتها يوميًا وسترين. أما بخصوصِ صوتِ المؤذنِ فصاحبُه شابٌّ يدرس معنا في نفسِ الصفِّ، وهو يجلس في المقعد الخلفيَ، إنه جارُنا لذلك أعرفه.

توسعت عينا "بيري"، لم تعرف الطالبَ الذي تتحدثُ عنه، ولكنها بلا شك شعرت بفضولٍ كبيرٍ لتعلم صاحبَ ذلك الصوتِ الذي بعث في نفسِها من الراحةِ لم تذقْها حتى من متاعِ الحياةِ وبذخِها. وتشوقت نفسُها لقدوم الغد لتعرف من صديقتِها صاحبَ الصوتِ، من هو؟ وكيف يكون؟

***

كيف حالُ صِحَّتِها أيُّها الطَّبيب؟

تنهَّد الطبيب، وأمسَكَ بذِراعِه قائلاً:

لن أُخفيكَ يا "همَّام"، صحيحٌ أنَّ فُرَصَ العلاجِ من هذا النوعِ من السرطانِ كبيرةٌ إلى حدٍّ ما، ولكن ذلك يكونُ عند الكشفِ المُبَكِّرِ عنه، أما في حالِ والدتِكَ فهي لم تكتشفه في البداية. ومع ذلك فإن احتمالَ شفائها لا يزالُ قائماً...

أبرقت عينا "همام" بدموع الغيظ والحسرة، وتملكه غضب لم يعرفه قبلاً. ضرب الحائط بقبضة يده حتى ذرفت قطرات دماء حارة، ومع ذلك لم يشعر بألمها.

أخذ الطبيب يحاول أن يخفف عنه في توتر وقال:

_لا تفعل هذا بنفسك يا ولدي، لم أعهدك هكذا شديد الانفعال. اهدأ فهذا ليس من صالحك ولا من صالح والدتك. لم أقل إنَّ شفَاءَها مستحيلٌ، قد تكون الطريق وعرة أمامنا ولكنها ستشفى بإذن الله... وسأتابع صحتها بنفسي.

شكر "همام" ذلك الطبيب، وعاد بأمه إلى البيت. كان صامتًا طوال الطريق، لم ينبس بكلمة تشفي فضول والدته إزاء ذلك السكون المفاجئ، لعلها عرفت السبب الحقيقي، لذلك طلب الطبيب أن يحاور ولدها على انفراد... ولكن أينبغي لها أن تسأله عن نتيجة حديثهما؟ لا لن تفعل... على الأقل ولدها الآن مطمئن لجانبها النفسي، ويظن أن أملها الداخلي بالشفاء كبير جدًا طالما لم تعرف ما قاله الطبيب، وذلك يبقي جزءًا منه هادئًا مرتاح البال.

لم تنم الأم تلك الليلة، ظلت تدعو الله بكل ذل وانكسار بأن يشفيها لأجل ابنها، فهي تعلم في قرارة نفسها أنه من دونها وحيد في هذا العالم. ثم حثت الخطى تجاه غرفته في توخ، وجلست بجانب سريره تربت على رأسه بلطف، وقلبها يناجيه بكلمات لم يسمعها، كأنه يقول: «أنا راضٍ عنك يا بني»...

***

لذّةُ الفجر تلك ... شعور مستجد بدأت أواصله تتجذر في قلب فتاة لم تذق زلال الطاعة، ولا وقار الصلاة، ولا حتى عذوبة الاستكانة في الدعاء بين يدي المجيب. ومع أول تجربة لتلك المتعة الخاصة لم تقوَ على تركها. حتى هي التي لم تستيقظ في حياتها وقت الفجر باتت اليوم تستفيق بدون منبه، تستمع لصوت المؤذن الشجي، ثم تهب للوضوء والصلاة. تتلهف للحظة السجود تلك، فتبث كل ما يختلج روحها من ضياع وتشتت، ولا تكاد تشعر بطلوع الشمس، ثم تأخذ القرآن، وتقرأ منه ما تيسر لها حتى يحين وقت الدراسة.

تغيرت ملامح شخصيتها كثيرا، باتت أكثر اتزانا وتؤدة من ذي قبل، تمضي وقت فراغها في غرفتها تصلي وتقرأ القرآن متلذذة بذلك الوقار، إلى أن لاحظت عائلتها تغيراتها في الفترة الأخيرة. لم تكن بذلك القدر من الاهتمام بدينها، ولعل انعزالها بات يخيف والديها في الفترة الأخيرة. كانت أمها تطالب والدها بأن يفتحا معها هذا الموضوع، فيمنعها السيد "قاسم" بحجة أنها مجرد فترة ثم ستعود لشخصيتها الطبيعية، ولا داعي لتضخيم الأمر. ومع ذلك لم يهدأ بال أمها التي كانت ترى فيما تفعل تشددا سيؤدي بها في نهاية المطاف إلى هدر

طاقتها وإهمال دروسها التي كانت بالنسبة لها أولى من العبادة. ومع ذلك كانت تعرف عقلية ابنتها العنيدة، فهي لن تستجيب لرغبتها، ولن تبتعد عن ما ظنته بـ"مغالاة في العبادة وهدر للطاقة" إلا بعد أن تقتنع بنفسها، ولعل أنسب خيار تتخذه في حالتها هو أن تراقب صديقاتها، ففي فرنسا لم تمر عليها كهذه الفترة من قبل، لذلك حملت محيط ابنتها المستجد مسؤولية ما آلت إليه.

باتت أمها "جوانا" لا تنام حتى تطمئن لنومها، لاحظت أن ابنتها أصبحت تواظب على قيام الليل في عطلة نهاية الأسبوع، وتستيقظ هي الأخرى وقت الفجر تراقبها وهي تصلي وتطيل السجود، حينها استيقنت أن شكوكها كانت في محلها، فابنتها تغيرت وحالها تزداد يوما بعد يوم. فوجدت الحل هو أن تعرف صديقتها وتحدثها بنفسها على انفراد لتعيد ابنتها إلى حالها السابقة.

***

_ابنتي "بيري" ... ما رأيك أن تقومي بدعوة أصدقائك للغداء هذه الجمعة N’est-ce pas une bonne idée?

_Tu m’as surpris avec cette idée, maman !

_لا تعقدي الأمور يا ابنتي، سأتكفل بكل شيء ... ستمضون وقتًا مسليًا، وأيضًا سأتعرف عليهم ...

_حسنًا إذًا، كما تريدين يا أمي، سأخبرهم اليوم ...

شعرت "بيري" أن طلب أمها كان وراءه غرض ما تكنه داخل فكرها دون أن تفصح لها به، غير أنها لم تشأ أن تناقض رغبتها. ولم ترَ في الأمر ما يدعوها لرفض عرضها، خاصة أنها هي الأخرى كانت تنوي أن تدعوهن قريبًا لبيتها. أما "جوانا" فأرادت أن تعرف أصدقاء ابنتها، لأي طبقة ينتمون؟ وكيف يفكرون؟ وهل حقًّا كانوا السبب وراء تغيرها المفاجئ؟ أسئلة كثيرة لن تلقى لها جوابًا شافيًا إلا إذا اجتمعت بهم وعرفتهم حق المعرفة.

وبالفعل، حدث ما خططت له، دعت "بيري" صديقاتها، وقد انتبهت إلى أنهن جميعًا فتيات، أغلبهن كن محجبات وملتزمات، حتى حديثهن كان خافتًا وخاليًا من العبث والضحك المبالغ، وقد بدت

اهتماماتهن الدينية جلية في كلامهن؛ فواحدة تتحدث عن والدها الذي لا يسمح لها بالخروج متى شاءت بدون سبب يُذكر، وأخرى تتحدث عن جمعية القرآن، وهذه تتحدث عن رغبتها في الالتزام بالحجاب الشرعي... والعجيب هو أن "بيري" كانت منسجمة مع حديثهن، وكأنها تؤيد أفكارهن التي بدت تؤكد عن فكر متخلف لا يواكب التطور الحاصل... شعرت بغضب شديد وغيظ استساغ في عروقها، غير أنها فضلت الصمت وقتها والتحكم في أعصابها لكي لا تخسر ابنتها.

وحالما رحلن، هبت والدتها تحادثها بهدوء فرضته على أعصابها التي باتت لا تطيق صبراً، ففاتحتها بالموضوع قائلة:

_أخبريني يا ابنتي ... هل أولئك الفتيات هن حقًّا صديقاتك؟

_نعم يا أمي ... تعرفت عليهن حديثًا، ولكن "حنين" هي أقربهن لي.

تذكرت "جوانا" تلك الفتاة التي تحدثت عنها ابنتها، لم تحبها منذ أن دخلت لأنها كانت ترتدي ثيابًا واسعة كالخيام، وقفازات سوداء كأنها سارقة لا طالبة. ودون سيطرة منها عبرت عن ما اختلج تفكيرها من تشبيهات لابنتها، فانتفضت "بيري" قائلة:

!Ce que tu dis est extrêmement raciste_

_هذه ليست عنصرية، إنها حقيقة ... كيف لفتاة في سنها أن تعمل بقفازات؟ بل كيف لها أن تقوم بأبسط الأشياء وهي تقيد نفسها بذلك الزي الذي يعيق حركتها شتاءً بفعل المطر والرياح؟ وصيفًا تضطر لتحمل مزيد من الحر بدل أن ترحم نفسها وتفكر في زي أفضل لا يعيق حياتها؟

عقدت "بيري" حاجبيها مستهجنة كلام أمها وقالت:

C'est de l'ignorance ... _كفى!

ثم حثت الخطى تجاه غرفتها في غيظ تاركة أمها غارقة في كوابيسها، فتغيرها لم يعد مجرد نزوة عابرة، بل أضحى قناعة تغلف عقلها بمدخلات مزيفة ورجعية كما رأتها أمها.

***

_بسس "حنين"! كم بقي من وقت على انتهاء الدرس؟

_حوالي نصف ساعة، ليس من عادتكِ أن تشعري بالملل! ما الذي حصل اليوم؟

_أشياء كثيرة تشغل تفكيري يا صديقتي، لا أستطيع التركيز...

_أخبريني ما الأمر؟ أنا هنا لمساعدتكِ...

سكتت الأستاذة لثواني بينما تحدق فيهما باحتداد، ثم قالت:

_"بيري" و"حنين"... أكملا حديثكما خارج الصف... هيا!

حاولت "حنين" أن تبرر موقفها، غير أنها لاحظت البرود والخضوع الذي استلم صديقتها، فتنازلت عن رغبتها واستسلمت لرغبة الأستاذة. وتركتا الصف نحو أحد مقاعد ساحة المدرسة. أشرق شدقا "بيري" بابتسامة غم، وقالت:

Je suis désolée, c’est ma faute_

_ما الذي تقولينه! نحن صديقتان ولا داعي للاعتذار. والآن قولي لي ما الذي يشغلكِ؟

تنهدت "بيري" بعمق كأنها تستجمع قواها المتلاشية، وقالت وقد بدأ الدمع يتجمع في مقلتيها، وصوتها يتهدج شيئًا فشيئًا:

_إنها أمي... أحيانًا أشعر وكأنني نشأت في عائلة غير مسلمة، لا يعرفون من الدين إلا تلك الصلاة الخاملة، بل إن إخوتي لا يكادون يعرفون الصلاة أصلًا. الدين لديهم في شهر رمضان، وسائر أيام السنة إنما هي لهو وركض وراء الحياة.

ثم أجهشت بالبكاء وتابعت:

_أعترف أنني كنت مثلهم، أهملت طوال عمري ديني وصلاتي وفرائضي، وكنت أحسب أن هذه هي الحياة المثالية، والسبب كان لانعدام التشبع الديني في نفسي، فلا أهلي كانوا محافظين على تنشئتنا نشأة صحيحة تتماشى مع مبادئ الإسلام، ولا محيطي في فرنسا كان كذلك، حياتهم كلها مبنية على مبدأ الحرية الزائفة، وأنا كنت منقادة لكل تلك الأفكار. ولكن...

أبرقت عينا "حنين" تأثرًا بكلام صديقتها، وقالت في انتباه:

_ولكن ماذا؟

_ولكن منذ أن سمعت ذلك الصوت تحرك شيء ما بداخلي، شعرت أن صوت المؤذن ذاك أيقظ ضميري النائم من سباته العميق، ولم أستطع أن أقاومه وأنام عن الفجر منذ يومها صدقيني... ومع مرور الأيام أصبحت أحبذ فكرة الالتزام أكثر...

ابتسمت "حنين" بينما انهالت دمعتها العالقة على وجنتها وضمتها بحرارة قائلة:

_إنني فخورة بكِ يا صديقتي، أرأيتِ؟ أخبرتكِ أن صلاة الفجر ستؤثر بالإيجاب عليكِ، وأن فكرة الالتزام لن تكون مستحيلة عليكِ.

ضمتها صديقتها هي الأخرى بحرارة، ثم تخلصت من يديها وقالت إليها في حزن:

_ولكن أمي لا ترضى لي أن أكون ملتزمة، تعتبر هذا تخلفًا مني ... وأنا أعرف أنها ستقف في طريقي ...

_ولكن هذا يعتبر جهادًا منكِ يا عزيزتي، وأنتِ هكذا تؤجرين على مقاومتكِ وصبركِ ضعفًا، لذلك لا تضعفي أبدًا، وأنا معكِ.

***

"همام" ... ذلك الشاب الغريب الذي بدّد ظلمة "بيري" إلى نور أشرق به قلبها الذي كان قابعا في سباتٍ مديد، والآن بات فَيْفاء واسعة تضم بين رحابها زهور الإخلاص في العبادة وحبها. ذاك الآذان الشجي لم تستطع أبداً نسيانه، بل باتت تحفظ تَرْجِيع صوته، وتردّدها في قرارة نفسها، لكنها لم تتخيل أبداً أنه قد يكون زميلها في الصف. أضحت تراقبه من بعيد وترميه بنظراتٍ خفية مشوبة بشيء من الإعجاب والتساؤل، لم يكن يشبه أصدقاءها في فرنسا كـ"فيليكس" مثلاً، كان مختلفاً عنه وحتى عن إخوتها، بدا شاباً رزيناً حليماً لا ينقاد وراء التفاهات، والأهم أنه كان مواظباً على دروسه ومتفوّقاً هو الآخر.

كانت "حنين" قد أخبرتها أنه جارها، ووالدته كثيراً ما تلتقي بأمها فتتحادثان حديث الجيران المعتاد، كما أخبرتها عن قصته الحزينة مع والده، وعن مرض أمه الخطير. يومها تألم وجدانها بعض الشيء لحكايته، ظلت تفكر في ذلك الشاب ليلتها، وفتحت طاقة الغرفة وأخذت تحملق في السماء المرصعة بالنجوم، كأنها تعدّها في انشغالِ عن تفكيرها الذي لم تسلم منه، ومهجتها تتحدث:

_"همام" ... "حنين" ... كنتما سبباً في بداية طريق صلاحي ودون أن تشعرا. لعل انتقالي من فرنسا إلى وهران كان فيه خير لي ... شكراً لكما.

ظلت كذلك تتأرجح بين أفكارها حتى أن غفت على هيئتها،ولم تستفق إلى أن تخلل ذلك الآذان الشجي مسامعها مرة أخرى، لتقبع على سجادتها إلى حين شروق الشمس.

***

_"بيري" ما رأيكِ أن ننجز البحث في منزلي هذه المرة، كما أن أمي متشوقة لتتعرف عليكِ، فأنا دائمًا أحدثها عن حكاياتكِ المسلية.

تهلل وجه صديقتها وأخذت تضحك من كلامها، وأجابتها:

_حسنًا لا مشكلة عندي، سآتي إليكِ مساءً بإذن الله.

عادت "بيري" إلى منزلها، وأخبرت والدتها بموضوع البحث، لم تحبذ الفكرة فهي لا تحب "حنين" منذ أن رأت هيئتها المرة الماضية حينما دعت ابنتها صديقاتها، ولكنها تعلم أنه ليس لديها خيار، فابنتها عنيدة وهي لا تملك حجة تقنعها بأن تبتعد عنها وتلغي هذه الصداقة المؤذية كما ظنت.

أنجزت الصديقتان البحث، وتعرفت "بيري" على والدة "حنين" التي أحبتها كثيراً، فقد كانت سيدة لطيفة وروحها تشبه روح ابنتها إلى حد كبير. وبينما تتسلى الفتاتان لترتاحا من تعب البحث الذي أنجزتاه أخبرت والدة "حنين" ابنتها أن جارتها "خديجة" تطلب أن تراها. ابتسمت "حنين" وقالت لصديقتها:

_خالتي "خديجة" هي والدة زميلنا في الصف "همام"، كنت قد حدثتكِ أنها سيدة لطيفة، ولكن منذ مرضها أصبحت لا تقوى على

الخروج من المنزل فتشعر بالملل في بيتها، لذا نزورها كثيراً أنا وأمي عندما لا يكون ولدها في المنزل لنخفف عنها، ولكنني هذه المرة انشغلت بدراستي وأطلت عنها الغياب لذلك طلبتني!

_قصتها حقًا محزنة ... اذهبي لرؤيتها عزيزتي، سأنتظرك ...

_ما رأيكِ أن ترافقيني! لن تنزعج منكِ بل ستبتهج أكثر فهي اجتماعية رغم مرضها، كما أنني حدثتها عنكِ كثيراً ...

أجابتها "بيري" بتهكم ساخر:

_يبدو أنكِ أخبرت نصف سكان الكرة الأرضية عني ...

قامت "حنين" من مكانها وأخذت تسحب صديقتها لتترك مقعدها

_هيا لنذهب معًا، لن أذهب وحدي ...

أخذت والدتها تضحك من المشهد، كأنهما أختان صغيرتان تستمتعان بأوقاتهما معًا، فمنذ رحيل صديقة "حنين" القديمة لم ترها على هذه الدرجة من البهجة والنشاط، أخيراً ... وجدت صديقة أخرى تلوذ إليها في أوقات فرحها وحتى حزنها ...

***

السيدة "خديجة" ... تلك المرأة الطيبة التي ابتلاها الله بمرض خبيث بات يهدد حياتها، ومع ذلك تراها راضية بقدرها، بل وتجده نعمةً من الله لا نقمة، ليخفف عنها ذنوبها فتؤجر على صبرها الطويل وكذلك ولدها. لم تشتكِ يومًا من الألم، بل تهرع إلى الدعاء كلما اشتد فتحمد خالقها وتناجيه ... حقًا غريب هو صبر تلك المرأة، فأنتَ ترى رجالًا لا يتحملون الألم ويشتكون منه، فكيف لامرأة بذلك؟ سؤال اختلج قلب "بيري" منذ أن قابلت والدة "همام"، حينما حدثتها عنها "حنين" اعتقدت أنها مجرد أم عادية ولكن حينما رأتها أيقنت أنها أكثر من ذلك، إيمانها وثباتها كان جليًا، وهذا ما لم تلمسه في امرأة أخرى من قبل، فعندما علمت بأنها مريضة تصورتها في هيئة شخص ضعيف، ولكن حينما التقتها أدركت كم خابت أحكامها هذه المرة. ودعتها "بيري" ولكن تركت لديها شيئًا من جوارحها، وأملًا بلقاء جديد.

لم تحتمل تلك الاستفهامات التي تضاربت داخلها بلا توقف حول تلك المرأة، اتصلت ب"حنين" عند الساعة العاشرة ليلًا:

_أعرف أنني أزعجتكِ ولكن أريد أن أسألكِ!

_لا أبدًا، خير يا أختي؟

_حينما كنا في بيت خالتي "خديجة" لم أتجرأ أن أسألها عن احتمال الشفاء من مرضها، هل تعلمين؟

_في الحقيقة لقد اكتشفت مرضها مؤخرًا فقط، ولم تفحصه مبكرًا، لذلك هناك قلق بشأن حالتها الصحية التي تزداد سوءًا، ولكن مع ذلك فإنها وولدها ونحن جميعًا لدينا أمل في شفائها يا عزيزتي ... ولكن أخبريني كيف خطر السؤال على بالكِ في هذا الوقت؟

_لقد أعجبتني شخصيتها بشدة، إنها امرأة قوية وليست كما تخيلتها أبدًا، حينما طال بنا الحديث وأخبرتني أن حياتها كانت مليئة بالمتاعب حزنت لأجلها، وقد فضحت تعابيري ما كان يكنه خاطري من ألم تجاه ما قالته، حينها أمسكت بيدي وأخبرتني: «من أنا كي لا يبتليني الله وقد ابتلى من قبلي أحب البشر إليه ... نبي الله "أيوب" فقد ماله وصحته وأهله لسنين طوال، ونبي الله "يوسف" الذي غدر به إخوته وبيع كعبد ثم ذاق مرارة السجن بهتانا، والسيدة "مريم" أم نبي الله "عيسى" التي اتهمت بالزنا وهي عذراء شريفة تقية ومع ذلك صبرت وأوقرت عزمها، وكيف ننسى هادي الأمم "محمد" - صلَّى

الله عليه وسلم - الذي ولد يتيمًا وكُذِّب مرارًا من قبل قومه حتى أنهم سعوا لاغتياله مرارًا، وحاصروه حتى احتدم عليه الجوع والفقر، بل وقذفوه بالحجارة حتى سالت دماؤه، وفقد أحب الناس إليه ... وما ذكرته لا شيء مما عاناه هو وباقي الأنبياء والصحابة، فكيف أعترض أنا العبد الضعيف العادي على قدر الله وأحزن بدل أن أحمده؟». لم أتمالك نفسي حينما سمعت منها هذا الكلام، وسال الدمع على وجنتي غصبًا عني ... ألا تشعرين أنها امرأة عجيبة مثلي؟

تخلل وجه "حنين" ابتسامة رقيقة، وقالت:

_بلى، لذلك أحبها وأمي ... أتدرين حينما خرجتِ زارتها أمي فأخبرتها أنكِ أعجبتِها بشدة، وقالت لها إنها تتمنى لو تزورينها دائمًا ...

_سأفعل بالتأكيد، فقد خلفت في نفسي أثرًا عميقًا لم يفعله سواها من قبل ...

ولم تكن السيدة "خديجة" أقل إعجابًا هي الأخرى بالفتاة التي تعرفت عليها، صحيح أن هيئتها وحديثها الذي تزاحمه اللغة الفرنسية بلا شعور منها لا يدل على فتاة تسير في طريق الالتزام أو على الأقل تود ذلك، ولكن "خديجة" لمست فيها ذلك، وعلمت أن

العتب الأول على أسرتها التي لم تكن تلقي بالًا لتلقين أحكام الدين الإسلامي لأولادها ... ومع ذلك فإن هذه الفتاة ليست بعيدة عن الهداية، بل تشق طريقها نحوها وبإصرار أيضًا، وهذا ما لفتها. إذ أنها بقيت طوال فترة طعام العشاء تحدث ابنها عن ذلك الإصرار، كأنها سعيدة وفخورة بها وبشخصيتها القوية التي لم تهزمها المدخلات الزائفة التي نشأت وترعرعت في كنفها. وحتى "همام" شعر بالسعادة لما سمعه، وأحس برغبة أمه الشديدة في استقامة تلك الفتاة، لعل ذلك سيسعدها أكثر ويحسن من حالها.

***

المكتبة ... ذلك المكان الذي يحمل في ثناياه أبوابًا لعوالم مختلفة، بعضها مليء بالمعرفة والعلوم، والآخر يودي بك إلى عالم من الصراعات والهواجس، وقد ينقلك بعض منها إلى عوالم بهية لم تكن لتعثر عليها في الحياة الحقيقية، لكنك حتمًا ستسافر إليها بين السطور ... لهذا كان أحب الأماكن ل"بيري" التي لطالما اعتادت أن تقرأ من الأدب الفرنسي، ولكنها هذه المرة تريد الغوص في عوالم أجمل، حيث تسد فيها بعضًا من ثغرات المعرفة الدينية التي تفتقر إليها، لذا قررت أن تقتني كتابًا دينيًا هذه المرة من المكتبة القريبة لبيتها والمقابلة للميناء.

دخلت المكتبة في حيرة مستبدة، حتى هشَّم تلك الحيرة صورة "همام" وهو يقتني كتابًا أيضًا، وإذ به يلمحها ويحني رأسه متجهًا لدفع المبلغ والمغادرة دون أن يعرب لها عن معرفة هويتها، فقد أدرك أنها الفتاة التي أعجبت بها والدته، فهي نفسها صديقة "حنين" المقربة والتي لم تفترق عنها منذ بداية الدراسة. أما عن "بيري" فقد انتابها ارتجال وتردد لم تألفه قبلًا ... ولعله هو الآخر لم يكن أقل منها في ذلك.

ظلت تحدق في تلك الكتب الدينية والدهشة تعبث بجوارحها وتعزف على أوتار قلبها نبضات سريعة لم تعهدها، لم هذا الشعور المستجد عندما رأت "همام"؟ ... كان هو الآخر يحمل كتابًا أتى به من قسم الكتب الدينية، فاتجهت إلى صاحب المكتبة وأخبرته أن يبيعها نسخة كالتي أخذها المشتري السابق (همام)، فلعل اختياره يبدد حيرتها ويساعدها على البدء في رحلة التعلم الجديدة التي اختارتها...

أخذت تقلب صفحات الكتاب بذهن شارد، لاحظت أن اهتماماتها بالشاب تتضاعف يومًا بعد يوم، أهو صوت الآذان بعث في نفسها هذا القدر من الإعجاب ... ولكن لحظة! أهو حقًا إعجاب؟ ... هي لا تعرف عنه شيئًا ولكن الصدف باتت تجمعها به كثيراً، أو على الأقل بشيء يخصه ... في البداية صوته وهو يؤذن، وبعدها اكتشفت أنه زميلها في الصف، ثم بعد مدة قصيرة أدركت أنه جار "حنين"، لتتعرف على أمه البارحة وها هي ذي اليوم تلقاه في المكتبة. أتكون مجرد صدف عابرة؟ أم أنها رسالات لقدر مجهول يحمل في طياته مزيدًا من المفاجآت ل"بيري" ...

***

كتاب (الموافقات) للإمام "الشاطبي"، ثم كتاب (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) لل"كاساني" بدَيًّا صعبين نوعًا ما على فتاة لا تزال تزرع بذور الإنابة والتنوير ... كانت قد صادفت "همام" مرتين في نفس المكتبة، وفي كل مرة تقرر أن تقتني نفس الكتب التي يختارها، ولكن يبدو أنه كان أكثر معرفةً وبحثًا في أصول الدين والشريعة مما يمكنه من قراءة مثل تلك الكتب المعقدة بالنسبة لمبتدئ في تعلم العلم الشرعي. وقد لاحظ صاحب المكتبة الذي بات على معرفة وثيقة ب"همام" نظير تعامله الدائم معه أن الفتاة نفسها كررت طلبها مرتين، ففي كلتا المرتين تطلب أن تأخذ نفس الكتاب الذي أخذه "همام" رغم أنها لا تعرف عنوانه، فقرر إعلامه بذلك في إحدى المرات. وقتها أيقن "همام" صدق ما قالته والدته عنها ... لا شك أنها تريد الاستقامة، ولكنها لا تدري من أين تبدأ، ولا بد من أنها تعلم بأنه دارس لعلم الشريعة من قبل في الجامعة ومؤذن أيضًا، لذلك تثق في ذوقه متغافلة عن الكتب التي لابد لها أن تحث طريقها من خلالها أولًا قبل أمثال الكتب التي يقتنيها "همام" الآن ... لهذا وضع بين

يدي صاحب المكتبة كتابًا بعنوان (الحجاب) للشيخ عبد العزيز بن باز، ثم دفع له ثمنه دون أن يشتري لنفسه كتابًا هذه المرة وأخبره:

_حينما تأتي تلك الفتاة مرة أخرى إلى المكتبة قدم لها هذا الكتاب ... وإن سألتك عن الذي أهداها إياه فأخبرها أنك لا تعرفه ...

لعلها كانت تضحية من "همام" الذي يمضي باقي أيام فراغه خارج الدراسة في العمل لدفع تكاليف علاج والدته بالإضافة إلى مستحقات البيت، وشراء كتاب ينتفع من علمه، ولكن هذه المرة فضل أن يهب الكتاب لمن هو أحوج له منه ... كان كتابًا مبسطًا حول تعاليم العقيدة والشريعة والعبادات، وستقطع من خلاله شوطًا كبيراً من التعلم ما كانت لتقطعه بهذه السرعة لولا تلك التضحية.

***

لم تدخر "بيري" جُهدًا في قراءة الكتاب الذي منحها إياه ذلك الشخص المجهول ... فُضول كبير تربع على أفكارها تجاه هذا الأمر، أَيَعقل حقًا أن يكون "همام"؟ أليس هو الشخص الوحيد الذي يعلم بترددها إلى المكتبة؟ ... وإن كان هو حقًا من فعل ذلك فلمَ اختار هذا الكتاب بالتحديد؟ كلما فكرت في الأمر انتابها إحساس غريب، وسرت رعشة خفيفة في أطرافها، وعاد قلبها ينبض بنفس السرعة التي لا تعرفها إلا حينما تفكر به ... فتسرح بخيالاتها بعيدًا، ولكن ما إن يكتشف عقلها خفايا مهجتها حتى يعود ليحدثها بنفس الكلام: «كُفّي عن هذا الهراء، "همام" لديه مشاغل كثيرة أولى من التفكير بكِ، أو أن يُهديكِ كتابًا مثلًا!»

ورغم تضارب الأفكار، إلا أن الهدف الأول كان قراءة الكتاب، وتعلم ما لم يسمح لها بتعلمه في الصغر وإن كان ذلك حقًا من حقوقها. وفي يومٍ وقفت عند جزئية حركت جوارحها مرة أخرى:

«الحجاب في الإسلام ليس مجرد ستر للبدن، بل هو رمز للعفة والحياء، ويعكس جمال المرأة الداخلية كما هو خارجي. إنه يتجاوز كونه زيًّا إلى كونه تعبيراً عن الإيمان والاحتشام، ووسيلة لحماية المرأة

من النظرات العابثة والألسنة غير اللائقة. الحجاب يجعل المرأة تتألق بوقارها وأخلاقها، ويمنحها طمأنينة وسلامًا داخليًا، لأنه يتماشى مع طاعة الله ويعزز من احترامها لذاتها».

حينها تذكرت كلام "حنين" عن الحجاب عندما التقتها لأول مرة، كانت مقتنعة به إلى حد أنها مستعدة لتتخلى عن جميع أحلامها فقط لتحافظ على حجابها، وهو ما استغربته "بيري" في البداية، ورأت فيه نوعًا من التخلف، أما الآن فهي موقنة بعقم تفكيرها السابق وصدق ما قالته "حنين"، فبقراءتها لهذا الكتاب فهمت جيدًا الغاية منه ... هو ليس قمعًا للمرأة أبدًا، وليس مجرد زي تخفي به مفاتنها عن أعين الغرباء، إنه أعمق من ذلك بكثير ... إنه تحصين للمرأة من الابتذال والاستغلال وتعبير عن أنوثتها التي تتجلى في عفتها وحيائها... بحيث لا تكون المرأة سلعة رخيصة تُعرض في السوق ليختبرها المارة دون شرائها، بل أنها تظل جوهرة فريدة لا يطؤها إلا من يستحق امتلاكها ...

وضعت الكتاب وأخذت تضم وسادتها وتبكي بحرقة ... «كيف كنت أستهجن الحجاب ... كم كنت إنسانًا غبيًا ...»

لبثت على حالها لبضع دقائق، ثم تخلصت من دموعها التي انهالت كالشلال على وجنتيها المتوردتين، ثم أخذت تلف على رأسها ستار الغرفة وتنظر إلى المرآة وفي أعماقها جمرة متقدة لن تنطفئ إلا إذا حققت رغبتها القادمة بارتداء الحجاب. ولكن أنى لوالدتها وعائلتها أن يتقبلوا الفكرة؟

اتصلت بصديقتها "حنين" وأخبرتها عن رغبتها في ارتداء الحجاب، حينها أخذت صديقتها تقفز فرحًا كطفل صغير فرح بلعبة جديدة ... كم هي سعيدة بسير صديقتها نحو طريق الهداية يومًا بعد يوم ... حينها أخبرتها أن تتذكر قول النبي - صل الله عليه وسلم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». وطلبت منها أن تصلي صلاة الاستخارة لعلها تشفي حيرتها وتهديها للسبيل الأهدى لها ... وكذلك ستفعل...

***

ها قد اختلجت زُرقة السماء بلون السحب المتوردة من أثر أشعة الشمس التي بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا من الأفق، بينما تستعد النجوم لتزخرف السماء كأنها خرزات مطرزة على ثوب نيلي قاتم ... ونسيم الشتاء بدأ يؤول رياحًا باردة تعصف بما تبقى من أوراق الشجر نحو مصائر مُبهمة ... وما هي إلا دقائق معدودات حتى لاح آذان المغرب لمسامع الأهالي ليعلن عن دخول وقت الصلاة. كانت "بيري" قد تركت كتابها لتُقبِل على الصلاة قبل أن تفوتها، وفي كل لحظة تنتظر إشارة من الله بأن يرشدها إلى قرار صائب في مسألة الحجاب بعد أن صلت صلاة الاستخارة أكثر من مرة، ومع ذلك لم تتلقَّ تلك الإشارة بعد ... ولكنها لم تيأس، بالتأكيد ستهتدي بفضل من الله إلى خير سبيل.

أدَّت صلاتها وجلست تردد وِرد الذكر بعد الصلاة، ثم جمعت سجادتها وأخذت تُحدِّق في المرآة بثياب الصلاة ... سكينة قبعت على وجدانها وهي تنظر لنفسها، لم تكن أول مرة ترى نفسها بثياب الصلاة... ولكن رغبة أوقدت جَذوة الحجاب داخل فؤادها ... إصرار لم تستطع أن تتخلص منه ... نثرت سجادتها مرة أخرى وأخذت تُصلي صلاة النافلة وتُناجي خالقها أثناء السجود ... «اللهم يا عالم الغيوب،

يا كاشف الكروب، يا مُفرِّج الهموم، اكشف عني همّي وحُزني، وأزل عني ما أثقل قلبي. اللهم إني أستودعك أمري كله، وأسألك أن ترزقني الصبر والرضا والقوة على طاعتك والخضوع لأمرك، إنك على كل شيء قدير ...»

أنهت الصلاة ومسحت دمعها ونظرت في المرآة مرة أخرى قائلة:

_« أنتِ لها ... أجل لن يكون الحجاب عائقًا أمامك وسيتقبل الجميع ذلك عاجلًا أم آجلًا، الله يعلم ما ستكابدينه لأجل طاعته ... لذلك سيعينك ويُلهمك القوة والصلابة ... كنتِ دائمًا قوية وعديمة التردد ... ولازلتِ كذلك».

***

_"قاسم" ... يا أولاد ... العشاء جاهز!

اجتمعت الأسرة على منضدة العشاء، وكالعادة السيد "قاسم" يُحدثهم عن أخباره وحكايا عمله، بينما يشاركه "آدم" الذي كان كثير الفضول كأخته على غرار "دانيال" الذي يميل على الدوام للسكوت والعزلة والانفراد بأفكاره ومكنوناته ... ولكن على غير العادة لم يكن الوحيد الصامت ليلتها، فأخته أيضًا بدت شاردة كثيرة التفكير، لم تتناول سوى لقمة بسيطة من طعامها ... كأن في جعبتها كلامًا تريد البوح به، وهذا ما لم يُطمئن خاطر والدتها.

_«أمي»، «أبي»، «دانيال» و«آدم» ... أنا اليوم سأخبركم بقرار اتخذته لا رجعة لي فيه ... وقبل أن أعلمكم به أود أن تدركوا بأنني لا أرغب في استشارة، لأنني واثقة من قراري ... لقد قررت أن أرتدي الحجاب...

تقطَّبت تعابير "جوانا" امتعاضًا لما سمعته من ابنتها، وقد أهمل الغيظ سيطرتها على أعصابها هذه المرة ... وقفت وضربت بكلتا يديها على الطاولة وقالت بصوت عالٍ:

_لن يحدث ذلك ... تحمّلتُ عقم تفكيرك المستجد في الفترة الأخيرة، ولكنني لن أتحمل المزيد... أزيلي من فكرك هذا القرار لأنه لن يُطبق...

_أريد أن أفهم شيئًا واحدًا أرجو أن تُجيبيني عليه ... أنشأتِني في بيت يهودي؟! نشأتي في فرنسا لا تعني أنني لست مسلمة ... لذا تفهمي ذلك ...

_ومن قال إنك لستِ مسلمة! ها أنت تصلين وتصومين وتشهدين بوحدانية الله ... ولا داعي لارتداء الحجاب لتثبتي ذلك. لازلتِ صغيرة لتفهمي أننا نعيش في عصر يحاول فيه المتجبرون إحكام السيطرة على المرأة من خلال الحجاب، وذلك لحرمانها من حقوقها...

تصوّرت ضحكة استهزاء بين شدقي "بيري" وقالت:

_لو أنكِ بحثتِ قليلاً في معنى الحجاب لأدركتِ كم أن تفكيرك هذا قديم وخاطئ ... لا تُحاولي يا أمي، فأنا لن أعصي خالقي لأرضي مخلوقًا ...

تركت "بيري" طاولة الطعام متجهة نحو ملاذها الذي تستقر فيه روحها وتأمن فيه حريتها في الدعاء والذكر والصلاة ... مخدعها الذي

بات أحب مكان إلى قلبها، حتى سمعت صراخ أمها يمتد إلى الطابق العلوي حيث توجد غرفتها، كانت تبكي بحرقة وتصرخ:

_«لماذا ... كيف أتقبل أن ابنتي ستدفن نفسها بتلك الخيام المتسربلة، ما الذي أقوله لصديقاتي!»

هرع "آدم" وزوجها "قاسم" يرشانها بقطرات من الماء لعلها تستفيق من نوبة الهيجان التي ألمت بها، بينما تُصغي "بيري" لأمها وقلبها يتفطر على حالها، خاصة أنها السبب في مآلها هذا، ومع ذلك لا تستطيع مساعدتها فقد تزيد الطين بلة ... ولكنها لن تتراجع، فقد كانت تعلم العواقب وها هي ذي تتلقاها، ولكنها وعدت نفسها بأنها ستكون قوية طالما تتمسك بحبل الصواب.

السيد "قاسم" لم يبدُ بنفس القدر من الخيبة والاستياء الذي ألمَّ بأمها إزاء قرار ابنتها، وكذلك "آدم" لم يهتم لما سمع، إذ أنها أخته الصغرى ولا سلطة له عليها بوجود والديه. أما أكبرهم "دانيال" فقد كان هو الآخر ضد فكرة حجابها، إلا أنه لم يشأ التدخل في الوقت الحالي حتى يهدأ الوضع.

***

تتالت الأيام على "بيري" كأنها حلقات جحيمية لا تكاد تخرج منها ولا ترتاح، والدتها تتجنب الحديث إليها ما استطاعت، كأنها ليست تلك الأم الرؤوم التي تعطف عليها وتحمل عليها جزءًا كبيرًا من آلامها وأوزارها ... كيف تفعل ذلك وهي السبب في أحزانها الآن؟!

والدها وأخواها لم يكونوا ناقمين عليها بنفس الوتيرة، ولكنهم أيضًا غيّروا معاملتهم معها، ما عادوا يهبونها نفس الاهتمام كالسابق، لعل ذلك كان أمرًا من والدتها ... ولكن إلى متى؟

كثيرًا ما غالبها الدمع إثر تلك المعاملة التي لم تعتدها، فهذا العقاب كان أولى لشخص ارتكب جريمة في حق أهله لا قرارًا صالحًا كهذا! ليتهم يعلمون أن الله لن يحاسبهم على تبرج ابنتهم ما بقي لها من حياة لأنها الآن اهتدت ... ليتهم يعلمون الوقار الذي استلم روحها كلما طوّقت نفسها بحجابها وملابسها الفضفاضة، لربما تسبب تغيرهم معها في خلق فجوة كبيرة داخلها، ولكن سعيها لإرضاء خالقها كان يسد تلك الثغرة ويبددها سعادةً وقناعة.

وأول من سرّه خبر حجابها هو صديقتها "حنين" حينما ارتدته للمرة الأولى في يومها الدراسي، ظلت تردد لها بنيئتها الطفولية طوال اليوم:

_كأنكِ أميرة حقًا ...

ولم تهدأ "حنين" حتى اصطحبتها معها إلى بيتها لتدخل البهجة على وجه والدتها هي الأخرى بتلك الصورة البديعة التي ارتسمت على محيا "بيري" ... حياء وعفة تمكن تفرد بهما وجهها بعد أن ارتدت الحجاب، ويومها أيضًا قررت أن تصحبها إلى جارتها التي أحبت "بيري" منذ الوهلة الأولى، ولم تكن أقل منهم سعادة بذلك الخبر. أيقنت منذ أن تعرفت عليها بأن تلك الفتاة ستستقيم وتتوب يومًا إلى بارئها، وها هي ذي تفعل حقًا! قطعت شوطًا كبيرًا في رحلتها ... ولكن يبقى الأهم هو عزيمتها الدائمة ويقينها الذي لا ينبغي أن يبدده رأي الغافلين والمتغافلين من حولها ...

***

انهالت السيدة "خديجة" بالمباركات والدعوات لـ "بيري" بالثبات والاستحكام لما دلفت إليه من خطى زادت قمر سيماها حسنًا، تلك المباركات التي تطلعت في بنات أوهامها لو تجدها تتردد فخراً من عائلتها التي هي سكن هواجسها وملاذ أوجالها ... ولكن خابت خيالاتها مرة أخرى، ووجدت في "خديجة" و"حنين" ما آنس وحشة غربتها داخل معقلها ...

وكان "همام" أوفرهم فخراً بها، ولولا أنه غريب عنها لما كان تمنع من مباركتها وإلقاء خطابات التشريف والفخر عليها. كان قد رآها في الجامعة بثوبها الجميل، فقد بدت في السابق كروح تأبى المكوث في جسد صاحبها، أما وبعد أن اختمرت أضحت كشجيرة صغيرة عثرت على مكانها بين الأحراش. وحينما دأب إلى بيته بعد انتهاء الدوام سمع حسيسها في البيت، بينما تذكي والدته جذوة فخرها، وما هي إلا دقائق حتى مضت إلى بيتها مخلفة شتلات الغبطة في روح والدته، كأن التي انصاعت لبارئها ابنتها لا غريبة عنها. فلبثت تذكرها في كل مجلس يجمعه بأمه وتشيد بخصالها ... حتى تجذرت صورتها داخل حفيظة ذاكرته، وأخذت جوارحه شيئًا فشيئًا تحث بأواصلها نحوها،

بالأخص أنه كان سببًا في سترها، وما زاد عاطفته تأججًا هي قوتها وعزمها على قرارها رغم معادات أقرب الناس إليها، فقد روت لوالدته كربها وعزلتها، فزاده ذلك إعجابًا بها.

أما هي فلبثت خيالاتها تقلب صفحات صدفهما يومًا تلو الآخر، والآن باتت موقنة بأن له الضلع الأكبر في قرارها المستجد، فحينما لمحت مكتبته في بيته عثرت على نسخة من الكتاب الذي أهداها إياه لولا أنها بدت بالية ومقروءة، لا شك أنه قرأ الكتاب ولامس ما فيه من إشادات ودلائل بوجوب الحجاب للمرأة المسلمة، ولاحظ ترددها في كلتا المرتين بشأن اقتناء كتاب ديني فتنتفع من فضله، فقرر أن يريحها من عبء البحث، وقدم لها ما هو أثمن من مجرد نسخة من كتاب ... لقد منحها علمًا ويقينًا لن يزاح عن وجدانها ما عاشت، وما كان ذلك ليزيدها إلا حبًا لذلك الشاب التقي ... أجل لم تعد مكنوناتها عوابر إعجاب زائلة، بل أضحت حبًا طوق قلبها وقلبه دون إفصاح منهما ...

***

ظلت "بيري" هائمة في وعثها، تارة تغتبط بشذى العبادة التي تخلص روحها المقيدة، وتارة يدب إليها الوهن نظير معاملة عائلتها، وتارة أخرى يحلق بها الوجد بذلك الشاب نحو عالم آخر تستقر فيه هواجسها وأوجاعها، ويطيب فيه جرحها العميق.

وعلى غير العادة أنشأت السيدة "جوانا" تحدث ابنتها، وإن كانت أحاديثها باردة لا تقتصر إلا على الضرورة، ولكن ابنتها راضية بأقل التواصل، فهي لا تحتمل أن تجد نفسها تقف مقام العدو في وجه أمها، وإن كان رضا ربها أولى من رضا أمها وكل عائلتها، ولكن لا شك بأنه سيأتي يوم تقنعهم فيه بأن الدين ليس لعبة نخوضها متى شئنا، ونمل منها في غضون أيام ... بل إنه هدف وجودي ينبغي للإنسان أن يضعه نصب عينيه حتى يتذكر أنه مجرد عابر سبيل عليها، وأنه يسير في الطريق التي ستؤدي به إلى موئل سيستقر عليه لا ريب، وأما الاختيار فيقع على عاتقه ... وهي لا ترضى لعا منزلة إلا بجوار الصديقين والصالحين، وكذلك تأمل لأهلها.

وبينما تتخبط في مضجعها بين زحام المشاعر، قررت أن تخبر "حنين" بكل شيء يجول في خاطرها، فهي أكثر شخص يتفهمها في مثل هذه

الظروف، فرنت عليها تناشدها بأن تأتيها ليتحدثا، وما كان منها إلا الخنوع لرغبة صاحبتها ...

ورغم أن "جوانا" لم تكن مطمئنة لـ "حنين" وزيارتها المفاجئة، إلا أن برودها المستجد الذي لزمته في معاملة ابنتها فرض عليها أن لا تبدي شيئًا من استهجانها هذه المرة، كان عليها أن تكون أكثر حزمًا فلعله السبيل الوحيد الذي تهشم به إرادة ابنتها فتنعص لأمرها وتعود نفسها "بيري" التي أنشأتها تنشئتها المتحضرة في رأيها ...

***

_إنني مترددة ولا أعرف من أين أبدأ هذا الحديث ...

_قولي لي ما الذي يجول في خاطرك، تبدين متوترة!

أوصدت "بيري" الباب، ثم جلست بمحاذاة صاحبتها، وتنهدت بعمق لتستجمع قواها، وقالت:

_منذ أن انتقلت للعيش هنا وسمعت صوت ذاك المؤذن أحسست بأنه ثمة إحساس ما يجتذبني إليه، وذاك الإحساس بداخلي أخذ ينمو يومًا بعد يوم ...

ثم لمعت مقلتاها عبرات استنكفت عن الهطول، وقالت:

_لقد كان سببًا في ثباتي على الصلاة وإصراري على الاختمار ...

أخذت "حنين" تضحك بسعادة كأنما وراء تلك الضحكة كلام سيطرب صديقتها ويزيح عنها بعض الحيرة المحتبسة داخلها، وأجابتها:

_كنت أنوي أن أتحدث إليك بموضوع مهم قبل أن تتصلي بي، ولكنك استبقتي ذلك ...

ثم أخذت تداعب يديها بلطف وتقول في تهلل:

_السيدة "خديجة" والدته أخبرت أمي البارحة بأن "همام" ينوي أن يتقدم لخطبتك ريثما يتحسن حال أمه ويجني ما يكفي من المال ليتقدم لك ...

أنشأت خلجات الحبور تهرول داخل عروقها، كأنما زادها كلام "حنين" هيامًا به، فذلك لا يصدر إلا عن رجل حقيقي أبى أن يدنس حبهما بعلاقة سقيمة يتفطر منها قلبه وقلبها معًا، فاختار أن يتخذها أنيسة وحشته ورفيقة عمره، وقبل ذلك كله زوجته وأم أولاده في المستقبل ... فبعد استقامتها لا شك أنها ستكون شريكة صالحة تعينه على إرضاء خالقه وبر والدته، مثلما سيكون لها السند الذي لا يميل، والزوج الصالح الذي لا يرضى لها سوى أن تظل على خير السبيل ...

***

_أمي ... لدي خبر لك!

_أخبرني ...

كان يلهث بعد ركضه الطويل، فيحسبه الرائي أنه مجنون فقد ذاكرته لا عاقل ذهل بخبر مسجد.

_بعدما أديت صلاة العشاء بالمصلين، جاءني رجل قدم إلي عرضًا ذهلت منه أطرافي، أخبرني أن فاعل خير امتنع عن الإفصاح بهويته منحني مبغى من المال لأعالجكِ في السعودية، كما سأكون مؤذنًا وإمامًا بالناس في أوقات الصلاة في جامع جديد ستفتح أبوابه قريبًا، وفوق كل ذلك أمن لنا مسكنًا وجعل لي فرصة لأستكمل دراستي هناك ...

_م ... ماذا؟!

تجمعت العبرات في مقلتيه العريضتين، ولاحت بين شدقيه ابتسامة البهجة والانشراح، وقال لها في حنو لا تخلوه غبطة:

_أعرف أن التصديق بلغ منكي منزلة العجز، ولكن فاعل الخير ذاك تواصل معي عن طريق شخص أعرفه حق المعرفة لأضمن صحة ذلك، ستتعالجين يا أمي ... احمدي الله ألفًا ...

ظل الذهول يقيد لسانها، أيجب أن تفرح؟ ماذا عن وهران؟ كيف تترك ديارها بهذه السرعة ودونما مقدمات؟!

_ولدي، لقد سعدت بهذا الخبر، ولكن أنترك وهران هكذا! يثقل على نفسي ذلك ...

_لا تقلقي يا أمي ... سأعالجكِ وأكمل دراستي هناك وسأعمل ليلًا ونهارًا لأجل أن تعيشي أنتِ و"بيري" هنا في وهران عيشة هنيئة ...

_صحيح "بيري" ... كنا ننوي طلبها من أهلها قريبًا، لن نسافر بدونها يا ولدي، فنحن لا ندري كم ستستغرق غربتنا.

_سأطلب يدها قبل أن نذهب، ونستعجل بإجراءات السفر، وستكون معنا بإذن الله ...

تثاقلت عقارب الساعة عن السير ليلتها، وظلت أفكار "خديجة" تتخبط داخلها لتحرمها هناءة النوم، لعلها سعدت بالخبر، لولا أن عز

عليها أن تترك ديارها ومنبتها ومسكنها دونما تريث. لكن لله حكمة في ذلك، لعل أبواب الخير تفتح لهما جراء هذه السفرة فترى ولدها يحث خطاه نحو مستقبل لطالما أملته له وبرفقة من اصطفاها قلبه وأذن لها فكره ...

***

أخذ "همام" يحضر لإجراءات السفر، وفي ذات الوقت ظل يعمل ليطلب يد محبوبته قبل ذلك، وكثيراً ما بات يغيب لهذا السبب فتتوجس "بيري" عليه وتسكن وجدانها تلك الوساوس الشيطانية التي لا تكاد تنفطم إلا بالذكر ... وسرت الأيام سريان المياه في النهر إلى أن آن أوان ذاك اليوم المنتظر الذي لطالما حلم به "همام" و"بيري" داخل نفسيهما. أخيراً ... سيغدو الحلم واقعًا يجمع بين القلبين ...

أطلعت "حنين" صديقتها بما استجد عند "همام"، وأخبرتها بطلب من "خديجة" أن تعلم أهلها بموعد الرؤية الشرعية بعد ثلاثة أيام، حينها التأمت غبطة الدنيا في قلبها ... واعتقدت أن السعادة قد أخذت في قلبها مجرى لا سد له ولا منيع، لولا أن كانت بعض الأحلام تظل سرابًا لا جمادًا، وأن الأقدار لا تواكب خيالات تطلعاتنا دائمًا ... وأن للبشر أحكامًا تقيد رغبات بشر آخرين.

قابلت أسرة "بيري" "همام" ووالدته بالرفض دون استشارة لرأيها، إذ لم تكن "جوانا" مستعدة لمزيد من التضحيات في شأن ابنتها. سمحت لها بالتدين، وسمحت لها بالحجاب، ولكن أن تتزوج من مؤذن يقيد حياتها بأحكامه المتشددة فهذا أمر لن تنصاع له، وستدرك ابنتها

عاجلاً أم آجلًا أن كل ذلك كان يصب في مصلحتها ... هكذا كان تفكير تلك الأم التي ترشقت كل ألوان البهجة من حياة ابنتها ظنًا منها أنها تؤمن عيشها وتحميها من قراراتها المتهورة ... ولكنها لم تعلم أبدًا أنها بقرارها تفرض عليها ما هو نقيض ذلك، وأن الوقار الذي تأملته جراء ذلك سيغدو ملحمة تقطع أواصل السكينة في تلك الأسرة، والأيام القادمة كفيلة بذلك ...

***

تهشمت الأماني وضاقت رحاب القلب ... تلاشى الصفاء وأخذت الكروب تكدر بغمامها القاتم هناءة العيش ... "همام" الذي أحب "بيري" بصدق وجد نفسه يرحل إلى الغربة بدونها وهو الذي كد ليرى ثمار تعبه، غير أنه لم يلق سوى الرفض من عائلتها ... حينما رآها أثناء الرؤية الشرعية وجد عينيها المتلألئتين تبرقان هيامًا به، فما زاده ذلك إلا حبًا وإصرارًا على امتلاك تلك الجوهرة التي ستنير له دربه، ذلك الدرب الذي أضحى أكثر ظلامًا وأشد قسوة بعد الاغتراب من غير محبوبته ...

أما هي فانهالت الأوجاع عليها وجعًا تلو الآخر، رفضت والدتها أمير خيالاتها، ثم رحل إلى حيث لا تطوله عيناها، وها هي ذي تجد نفسها مرغمة على السفر إلى فرنسا مرة أخرى ... فقد قررت والدتها ووالدها أن يعودوا إلى ديارهم، حيث كان كل شيء بخير ... حيث كانت "بيري" الفرنسية أكبر نضجًا ... حيث تأمن العائلة على ابنتها من تلك المدخلات الدينية التي سحقت الوقار من حياتهم سحقًا.

يوم الوداع، كانت صحة "بيري" قد بدأت تتراجع على غير سالف عهدها، كأنما هي أواصل الحزن أخذت تنشر سمها القاتل في أنحاء

جسدها كمرض خبيث لا يشفى ... كانت "حنين" هائمة الفكر أسيرة الشجن، فرفيقة دربها التي قاسمتها حزنها وفرحها ها هي تَرّحَل عنها دوغا حيلة منها. كان القدر قاسيًا هذه المرة، فأبعد عن "بيري" أحب الناس إليها، وها هو ذا يبعد عنها صديقتها مرة أخرى ... بعد أن اعتادت صوت الآذان ذاك، وسرعت في رحلة حفظها للقرآن في إحدى الجمعيات، وعثرت لنفسها على أخت وجدت فيها ما لم تجده في سواها ... أجل ها هي ذي تحمل حقيبتها مرة أخرى متجهة إلى حيث لا تريد، إلى فرنسا ...

لحقت "حنين" صديقتها إلى المطار في عجلة، وأخذت تسترد أنفاسها بعد أن أنهكها الركض ...

_ حمدا لله ... لم تقلع الطائرة بعد! تفضلي هذه الرسالة، أرجو منك أن تقرئيها حالما تشعرين بوحشة الوحدة ...

تناولت منها "بيري" الرسالة، وأنشأت العبرات تسترسل إلى مجراها على وجنتي كل منهما، تلك العبرات التي انهالت كالغيث الغزير الذي يغدو طوفانًا ينكؤ الجراح وينذر بالغم المحدق الذي سيلم بتلك القلوب المهشمة ...

عادت عائلة "قاسم" إلى (تولوز)، ولكن تلك الفتاة التي فقدوها في (وهران) فقدموا إلى فرنسا أملاً في العثور عليها لم تكن موجودة، لقد ماتت "بيري" القديمة ... تلك المتبرجة الراكضة وراء اللهو ... تلك المقصرة في دينها حق التقصير ... لم يجدوها في فرنسا مجددًا.

أما الآن فأصبحت أعظم منياهم هي أن تجلس معهم، تحدثهم، وتخرج من أسر الصدمة والغم الذي احتبسها في قفص لا فتحة له. فقدت الأمل في كل شيء، وباتت تلازم مضجعها وسريرها الذي شهد أتعس لحظاتها ... لم يجد لها الأطباء وصفة تشفي علتها، فسقم الروح لا ترياق له. امتنعت عن الأكل إلا ما بلعته غصبا، وتخلت عن دراستها ... حتى صديقاها "فيليكس" و"إميلي" ابتعدت عنهما ... فـ"فيليكس" شاب محرم عليها الخروج معه أو حتى الحديث إليه، و"إميلي" لم تتقبل فكرة حجابها وحاولت إقناعها بما هو نقيض ذلك عندما كانت تحدثها عبر الهاتف أيام استقرارها في

فقررت أن تبتعد عنهم جميعًا "حنين" والسيدة (frond mer)،

"خديجة" وحتى "همام" كانوا أكثر من يفهمون سريرتها ونجواها دونما إفصاح ... أما الآن ما عادوا بمحاذاتها، فأظلم كل شيء أمامها،

وسمحت لسقمها بأن يسترسل في جسدها فيتلف ما شاء من أعضائها...

مالت الشمس إلى غير موضعها، وأخذ الغمام يلبد السماء ليواري القمر منذرا بليلة ظلماء قاتمة. وحتى تلك اللحظة لم تبرح "بيري" حجرتها، وقد أخذ القلق يدب إلى عائلتها بالوجل والوهن على ابنتهم.

قرعت "جوانا" باب الغرفة فما تلقت من جواب أو إذن بالدخول أو حتى رفض بذلك، فاستجمعت قواها ودخلت لتجدها ممددة على فراشها باسطة ذراعيها كأنما تحتضن ذاك العالم الأليم الذي انتقلت إليه، بينما تنظر إلى السقف في وجد شاحب وعينان لا تكادان تنبسان برمش، فأخذت تسحبها من يدها وتقول في هلع:

_ كفي عن هذا يا ابنتي، هيا انهضي لتتناولي طعامك! هيا!!

لم ترد عليها "بيري" ولو بشق كلمة تشفي بعضًا من خوفها، ولم تحرك ساكناً لتقاوم، بل رمقتها بنظرة باردة ألهبت جذوة الخوف داخلها أكثر، فما كان من "جوانا" سوى أن تتخلى عن المحاولة الفاشلة وتعيد ترتيب حساباتها أكثر، ففي النهاية صحة ابنتها وحياتها أولى من أوامرها ورغباتها هي، ولكن بعد ماذا! ... بعد أن رفضت أليف روحها

... ليت الوقت يعود فتصحح بعضًا من قراراتها، وتستعيد بنتها، حتى وإن كانت نفسها "بيري" الملتزمة المختمرة، زوجة المؤذن الفقير ... لعل ذلك أحسن حالًا من أن تراها طريحة الفراش لا حول ولا قوة منها.

***

رحل ضائعًا هائمًا في أفكاره، كان يخطط لبناء حياة سعيدة رفقة أمه وتلك الفتاة التي كانت أعظم أحلامه الزواج منها ... غير أن ذاك الحلم أخذ هو الآخر يتلاشى ليذكره بآهات الماضي مرة أخرى، ماذا يفعل؟! أينساها ويتابع حياته؟ أم يتمسك بحبل الأمل الذي قد يفلت منه فيقع على الجرف مرة أخرى، وهذه المرة ستكون الوقعة أقوى بلا شك.

حتى "خديجة" لم تسلم من ذاك الحزن، أحبت "بيري" بشدة، وودت لو تراها تؤنس ولدها الشقي بضحكتها وقوتها وعزمها الكبير ... ولكن الفراق حال بين تلك الآمال هذه المرة.

جلست إلى جانبه وأخذت تحدثه:

_ أخبرتني "حنين" أن عائلة "بيري" قد انتقلوا إلى فرنسا، لا شك أن الغرض من ذلك كان إعادتها إلى سالف عهدها وإبعادها عن طريق الاستقامة الذي سلكته منذ قدمت إلى وهران.

نظر إليها "همام" في قلق فأجابته:

_ لا تقلق يا بني، "بيري" لديها عزم لم أر لمثله نظير، ورغبات أمها ستضحي هباءَ منثورًا أمام صمودها وتمسكها برأيها.

ثم تنهدت وقالت:

_ اسمعني يا "همام" ... أعرف أنك لم تقدر على تخطي "بيري"، وبعد أن عادت إلى فرنسا أضحت المسافات تتعاظم بينكما أكثر، ولكن لا تتخلى عن التضرع لله بما أنت تريد، فلا شك أن صبركما سيكلل ببلوغ المنية الطيبة التي جمعتكما ... حتى وإن بدا لك الحلم محالاً فمحيي الآيات ليس بعاجز عن جمعكما يومًا ... أما عن تلك الهواجس فهي مجرد كوابيس يأتي بها الشيطان لينسيك الخنوع للإله القادر.

لعل ما قالته أمه كلمات لم تغير من الواقع شيئًا، ولكن الكلام يوقع في النفس ما لا تعمله الأفعال. قرر يومها أن يعمل ويدرس ويعالج أمه، ولا يدع ذلك اليأس يتمكن منه أكثر، فإن كان له نصيب في تلك الفتاة فلن يحجبه عنها سد ولن يعترضه حائل.

***

ظلت الأسقام تعبث داخل تلك الروح المضطربة، وتعاظمت الوحدة داخل هذه النفس التي تأججت بولع الفراق. وازداد قلق أهلها عليها يومًا بعد يوم، بات "قاسم" يخطط للعودة مرة أخرى إلى الجزائر، لولا أنه لم يجد فرصة أخرى للعمل، وباتت "جوانا" تقرأ القرآن وتحاول إقامتها للصلاة عسى أن تذكرها بأيام استقامتها فتعود لحيويتها وهمتها التي كانت عليها ... أجل! حتى "جوانا" التي كانت ضد فكرة الاستقامة أضحت تتخذها دواءَ تخمد به ملحمة ابنتها، ولكن هذه المرة دونما جدوى ...

مال القمر إلى غير موضعه، وأخذت الشمس مقعدها من السماء، وقامت "جوانا" توقظ ابنتها لصلاة الفجر، فإذا بها تجدها تفتش في حقيبة سفرها التي لم تلمسها منذ أن عادت لفرنسا، كأنما تبحث عن شيء معين. دخلت الغرفة فإذ بابنتها تقول لها بتهكم:

_ أنا مستيقظة، سأصلي الآن ... أرجوكِ دعيني وحدي!

عادت الأم أدراجها بينما تتأجج داخلها قنطة ويأس لم تعرف لمثلهما مثيل، وظلت تراقب ابنتها خفية من فتحة الباب فإذ بها تجدها تضم إلى صدرها كتاب (الحجاب) ... الكتاب نفسه الذي

أهداها إياه "همام"، فأخذت تضمه وتبكي بحرقة كأنما أعاد لها شريط الذكريات الجميلة في تلك الأيام التي لم تسمح للحزن بأن يطرق باب مهجتها، بل تمسكت بدينها رغم الصعاب، ورغم معاداة أهلها لها ... ثم سحبت ظرفًا بداخله رسالة "حنين" التي لم ترد على مكالماتها منذ أن عادت، كأنما أرادت نسيان كل ماضيها القريب الذي أضحى سرابًا غير منسي، وقد كانت والدتها قد حدثت "حنين" ذات مرة فأضحت هي الأخرى قلقة مشغولة البال على صاحبتها وأختها.

فتحت الرسالة فإذ بها تقرأ:

«أنا على يقين من أنكِ الآن حزينة، ولذلك احترت في أمري ... أأشاطركِ ذاك الحزن وأخبركِ أنني لا أقل عنكِ ألمًا بفراق أغلى صديقة لدي؟ أم أتظاهر بالقوة التي لن تصدقيها وأخبركِ أنكِ ستتخطين كل ذلك فتدركي أن كلامي مجرد عزاء واهم لن يغير في واقع الأمر شيئًا؟!

وهنا كنت أقرأ في كتابه تعالى فوجدت آية آمل أنها ستشفي جرحك كما فعلت معي:

{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٠٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا (٠٣) }»

كانت "بيري" تقرأ تلك الآية بتمعن ثم تعيدها حتى ظنت والدتها أنها كتاب طويل لا رسالة قصيرة، ولكن لعلها حركت في داخلها ما لا تحركه حتى المجلدات الضخمة. أيقنت أنها سمحت للبلاء بالسطو عليها، ترى ماذا تقول لبارئها يوم الحساب حينما يسألها عن تقصيرها في حق دينها ونفسها؟ أتقول أنها كانت حزينة؟! أليست بمؤمنة موقنة بقدر الله وحكمة تدبيره وقدرته على تحسين حال عبده ما ظل يدعوه دونما كلل ولا يأس؟!

حينها قامت إلى سجادتها تبكي وتناجي بحرقة كأنما هي المرة الأولى التي تستقيم فيها، وأخذت تردد دعاء طلب الفرج الذي حفظته في أولى بدايات استقامتها، كأنما تتذكر عذوبة تلك اللحظات في الخنوع تضرعًا بين يدي الإله وتقول:

«اللهم إني أسألك يا خالق السماوات والأرض، يا من يُجيب الدعاء، أن تفرج همّي، وتكشف كربي، وتنزل السكينة على قلبي، وتعينني على ما أنا فيه. اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد، اللهم اجعل هذا الكرب فرجًا، وهذا الهم عوضًا، واجعلني من الصابرين المحتسبين».

***

أخذت الأيام تتراوح كما تفعل أوراق الشجر المتجددة، وعم الربيع على قلب "بيري" كأنما هو الفصل الوحيد في السنة، فقد أزهرت شتائل قلبها بعدما ضاقت رحابه الجرداء، وأضحى الهشيم بستانًا من خمائل مخضرة ملونة أضفت الحبور على حياتها.

وقد أخذ القرآن مأخذه من قلب تلك العائلة التي تمردت يومًا ما على أحكام دينها، ولكن الله يهدي من يشاء إليه ويجتبي من ينيب. فبعد الأسقام التي اجتاحت "بيري"، أخذت أمها تداويها بالترياق الذي لطالما وقفت حائلًا بينه وبين ابنتها، ولكنها لم تدرك إلا متأخرة أن ذلك الترياق كان دواءَ لها هي الأخرى ... فبعد أن أضحت تقرأ لها القرآن لتريحها وتذكرها بشيء من أيام استقامتها فتصح من سقمها، أنشأ القرآن يشد أواصله بقلب تلك الأم علّها تهتدي وتوقظ ضميرها المنخور بسفائف الأفكار الدنيوية والاستشراقية الغابرة، فتعلق قلبها بربها أكثر وأمعنت في الحقائق التي توارت عنها لسنين مقضية ... لعلها لامت نفسها كثيراً وتألمت أكثر، ولكن "بيري" وقفت إلى جانبها لتعينها على المشي في الطريق العذب الذي خطته قبلها ليشفى القلبان معًا هذه المرة.

وأخذت العائلة شيئًا فشيئًا تستلذ زُلال الالتزام والإنابة بعد دهر من العصيان والتولي ... وقد كانت "حنين" شاهدة على كل تلك التغيرات المحدثة وإن كان ذلك فقط من خلال مكالماتها الهاتفية الطويلة التي أبقت أواصِل الصداقة محكمة بينهما. فتعيد الفضل دوما لـ"بيري" التي لطالما أشركت أهلها في دعواتها بالهداية والتوبة لهم، فكان لها من ربها ما تمنت.

وبعد محاولات من "قاسم" للعودة إلى (وهران) بعد إلحاح من أفراد عائلته لاسترجاع وظيفته القديمة التي كان يشغلها في ميناء

تعود وهاهي ذي "بيري" تستعد مرة أخرى(frond de mer)

إلى حيث تجذرت داخلها بذرة الطاعة والعدول. وهذه المرة لن تعود لها كما رحلت عنها، فروحها التي كانت يائسة متحجرة أضحت بفضل دعواتها وتقربها لخالقها مفعمة بالنشاط والأمل، وموقنة بأن الخير سيلحقها حيث كانت، وأن الله لن ينساها من فضله ورحمته... هذه المرة ستعود وهي مكللة بتاج القِطْر الذي ستلبسه يقينًا يوم الحساب بفضل حفظها لكتابه جل وعلى، وسعيها لنقل ذلك لأهلها ...

***

أخذت "بيري" إكليل الورد الذي صنعه لها والدها ووضعته فوق رأسها لتتخذ آخر صورها في المدينة الوردية (تولوز) ... وبعد أن انتهت أخذت تتأمل الحديقة التي أمضت فيها ليالِ طوال تحفظ كتاب الله تحت ضوء القمر الأزرق الذي أنار لها عتمة الدجى. سعيدة لأنها عائدة إلى حيث أضاءت شمعة الاستقامة داخل وجدانها، إلا أن ذكرياتها الجديدة هنا خلال السنوات الثلاث الماضية لم تكن بذلك السوء ... فقد حفظت القرآن، وأعانت أهلها على السير إلى حيث سارت، كما تابعت دراستها وتعليمها دونما توقف ... والآن آن موعد عودتها الذي انتظرته وترقبته طويلًا، حتى وإن كانت (تولوز) مدينة بهية يسحر رونقها الزائر، إلا أن (وهران) كانت أجمل، فهي تتيح لها أكثر أن تحفظ دينها وتتعلم ما ينفعها في آخرتها، وكذلك بات أهلها.

كانت "بيري" قد امتنعت عن لقاء "حنين" في الأيام الثلاثة الأولى من وصولها رغم إصرار صديقتها على اللقاء، فما كان منها إلا أن تلهيها ببعض الأعذار الوهمية. فقد كانت تعد لها مفاجأة لم تتصور حصولها... كانت وأمها تخططان لطلبها للزواج لـ"دانيال" ... "دانيال"

الذي استقام هو الآخر وبات شابًا رزينًا يعتمد عليه، وقريبًا يكون زوجًا وأبًا صالحًا يساهم في صناعة جيل يغني المستقبل.

وكما تصورت "بيري" فإن "حنين" وأهلها لم يرفضوا عرض عائلة السيد "قاسم"، بل على العكس ... فأي عرض للزواج يكون أفضل من أن تصبح جزءًا من عائلة صديقتها وأختها التي قاسمتها لحظات الحزن والفرح ... لحظات اليأس والأمل ... لحظات الفشل والنجاح ... خاصة أن "جوانا" تقدمت قبل ذلك بالاعتذار لـ"حنين" التي ظنت بها سوءًا، ولم تنتبه إلا متأخرة بفضلها عليها وعلى ابنتها، فرسالتها تلك كانت فجوة الأمل التي تسللت منها منابع الحبور والتفاؤل إلى نفسها المتعبة، ليتأثر أهلها باليقين الذي عرفته ويستقيم حال العائلة كلها.

***

_لستِ الوحيدة التي حضرتِ لي مفاجأةً يا "بيري" ... أنا أيضًا حضرتُ!

ابتسمت "بيري" في حُبورٍ وأجابتها:

_حمستِني ... ما المفاجأة؟!

_إنه "هُمام" ...

حينما سمعت "بيري" باسمه تسارعت أوتارُ قلبها، وأخذت المشاعر تهيج داخلها، كانت قد تناست أمره قدر المستطاع، وكلما عادت الذكريات تشعل فتائل الماضي أخمدت جمرتها بالطاعة والدعاء ...

لاحظت "حنين" وجه "بيري" الذي اختلجه شيءٌ من الاحمرار، فقالت لها محاولة تهدئتها:

_بعدما رحلتِ إلى فرنسا، انتقل "هُمام" ووالدته إلى السعودية ... لتبدأ رحلة علاج أمه من جديد. وبالفعل تعالجت أمه، وتابع دراسته دونما كلل ... كما استمر في العمل، وأعجب السعوديون بطريقة ترتيله للقرآن وإلقائه للمواعظ الدينية وقد تهافتت الجمعيات والمساجد عليه، وما كان منهم إلا أن أكرموه ... وفي غضون ثلاث سنوات استمر

بين الدعوة للثبات على الدين وتلقين تعاليمه والعمل في كسب الرزق الحلال. وهاهو ذا عاد وقد اشترى بيتًا جميلًا يؤويه ووالدته، كما عمل على فتح جمعية لتحفيظ الأطفال الصغار تعاليم القرآن ... وبات هو المشرف عليها والمعلم الأول فيها. ولما أخبرتْ أمي والدته بأمر عدول أهلكِ عن المعاصي وتوبتهم قررتْ أن تتقدم وابنها مرة أخرى لطلب يدكِ علهم يوافقون رغبتهما بقبول عرضهم.

لولا أن كانت "حنين" أنيسة دربها ورفيقة روحها ما كانت قد صدقت ما سمعته، فقد ظنت أنه نسي أمرها وظل في السعودية ينعم بحياة رغيدة مع غيرها، ولكن الله شاء أن لا يفرق بين قلبين اجتمعا على خشية غضب الله وقبول قدره، وبين حبٍ عفيف طهَّر قلبيهما من المعاصي والذنوب ... وبالفعل كان لها ما تمنت ... ها هي ذي الآن زوجة لحبيب فؤادها "هُمام" يحضران لاستقبال مولودهما الأول الذي تعاهدا على أن يربيانه تربيةً صالحةً تكون لهما حسنة جارية يوم الحساب.

تخطّت الشمس كبد السماء، واختلجت زرقتها شيءٌ من الاحمرار المشوب بالسُحُبِ الخفيفة العابرة. وقفت "بيري" و"هُمام" عند سور الميناء يرقبان ذاك المنظر البهي. كان يومًا حافلًا سعيدًا بالنسبة لهما، فـ"بيري" ارتدت للمرة الأولى النقاب، وها هي ذي تستشعر جمال إحساس الرضا الذي طوّق قلبها وقلب حبيبها ...

_إنني فخورٌ بكِ يا "بيري" ... إن كان مولودُنا فتاةً سنسميها توبة، فتكون صالحةً مثلكِ.

ثم قاطعته قائلة:

_وإن كان مولودنا فتى، فأحب أن نسميه منيب ... ويروقني أن يتحلى بخصالك وشمائلك يا زوجي.

تنهد بعمق ثم قال لها:

_ارفعي يديكِ معي ورددي معي:

«سبحانك يا ربنا، لك الحمد والشكر حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. اللهم لك الحمد حمدًا لا ينفد أوله ولا ينقطع آخره، اللهم لك الحمد فأنت أهلٌ أن تُحمَد وتُعبَد وتُشكَر. لك الحمدُ ربي ضيقًا واتساعًا،

حمدًا كثيراً ملء قلوبنا وملء السماء. اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

امتثلت "بيري" لرغبته، ثم قالت له بعدما ترقرقت دمعة فرح من عينيها:

_كنتُ أظنُّ أنني عانقتُ الحُبورَ سَلفًا، وحاكيتُ سَلامَ الروحِ مُنذ الصِّغَرِ، وكَفَيتُ نفسي من جميعِ احتياجاتها ... حتى اصطدمتُ بجِدارِ الحقِّ الذي تَوارى عني لسنينَ أَدْبَرَت دون أن أستشعرَ منها شيئًا مما عرفته الآن. وجدتُ السعادةَ في إتقانِ العبادةِ، وحَظِيتُ بالأمنِ الداخليِّ عندما غُصتُ في لذَّةِ الدعاءِ، ورَحِمتُ روحي حينما آمَنتُها من مَكرِ النأي والعزوف. حينها فقط اكتشفتُ أن هذه الطريقَ أجملُ ... وأنتَ كنتَ سبباً في ما آلَ إليه مآلي البهيج، لم تكن مجرد عابرِ سبيلٍ في خيالاتي، بل قَبَعْتَ داخل فتائلِ مُهْجَتي المُضطَرِبةِ فأخمدتَ مآسيها الدفينة وبدَّدتَها يقينًا لن يُزاحَ عن قلبي ما دامتْ روحي تُصاحبُ جسدي الضَّعيف.

ابتسم لها "هُمام" ابتسامة الفخر التي تحبها، ثم عاهدها على أن يظل معينًا لها في دينها ودنياها ما عاش، ولبثا يستمتعان بمنظر

الغروب إلى أن مالت الشمس وتربع القمر كبد السماء جِرمَ الفضاء وفساحته...

***

النهاية